تأشيرة السحاب من صحراء الخليج العربي

أنا كويتي!!

قصة البحث عن هوية إنتماء إلى وطن



فاروق منجونه

تصميم الغلاف
ڤرجينيا بيرك

فاروق منجونه

تأشيرة النسحاب من صحراء الخليج العربي

الكتاب
الأول

أنا كويتي !!

قصة البحث
عن هوية إنتماء إلى وطن

الناشر
دار «البرزي» لندن

إلى ...
الصحراء المقيمة على
الود ...
وإلى
الواحة الواحدة بأنبل
عطاء ...
إلى
سطام، و...
وطني الأوّل والأخير

فاروق منجونه

إلى ...
الصحراء المقيمة على
الود ...
وإلى
الواحة الواحدة بأنبل
عطاء ...
إلى
سطم، و...
وطني الأوّل والأخير.

فاروق منجونه

« أنا كويتي !! »

تأشيرة دخول إلى الكتاب

علينا أن نتمسك بجوهر الدستور .. وأن نتفادى عيوباً عديدة أظهرها العمل .

* * *

« إن مجتمعاً مصاباً بهذه الظواهر ، لهو مجتمعٌ مريضٌ ، عرضةٌ لأنْ تتفشّى فيه الفوضى . ولأنْ يُصبحَ مسرحاً للحقد والكراهية والتفرقة بين أبنائه .. ولأنْ تنتشرَ فيه روحُ اللامبالاة ، وانعدام الشعور بالمسؤولية فيتفسّخ .. وليس بعد التفسُّخِ إلاّ الإنهيار ! » .

جابر الأحمد الصباح
ولي عهد الكويت

تأشيرة دخول الى الكتاب

« إن الحياة بدون مثل عليا ليست جديرة بأن تعاش ، والمرء بدون هذه المثل ، ليس أكثر من كائن طفيلي على مسرح الحياة ، والمرء عندما يكون كائنا طفيليا ، يتراوح وجوده بين الشر والعدم ، وكلاهما عبء على الحياة .. كلاهما عدو للحياة » .

* * *

« صحيح أن الحياة بما تطورت لها مستلزماتها ومتطلباتها المادية اليومية المنهكة .. وتكاد هذه المتطلبات تطحن المرء احيانا تحت وطأتها ، ولكن النضال من أجل تثبيت المثل العليا ، هو نضال من أجل تأمين هذه المتطلبات الحياتية اليومية المنهكة » .

« والقاعدة العامة – كما أرى – هي أنه على أساس من المثل العليا نستند عليه . نستطيع أن نواجه الحياة بمتطلباتها ، وبمستلزماتها ، وبأعبائها » .

من خطاب للرئيس
« حافظ الاسد »

تأشيرة دخول إلى الكتاب

« للكلمة المناضلة ، فعل الرصاصة حين تصوب باحكام نحو صدر العدو . ولا بد للصحفي الملتزم ، أن يحسن استخدام هذا السلاح ، لما فيه خدمة قضيته .. وخير أمته ووطنه » .

من اقوال الرئيس
« أحمد حسن البكر »

« لقد آمنّا بالعمل الجدي المستمر في مختلف المجالات ، وعلى جميع المستويات متكاتفين متحدين ، لكي لا تضيع جهودنا ، ولكي نصل إلى غايتنا بالسرعة التي نريد ، وبالنجاح الذي ننشد . فنحن ابناء أسرة واحدة ، نعمل معاً لاعلاء شأن وطننا بعيداً عن الصراعات والصدامات التي تفتت الأمم » .
« إننا أبناء أسرة واحدة ، يتفاعل افرادها بمحبة ، وانسجام ، وتكامل . ونحن جميعاً نؤمن بأن التقدم والتطور ، يجب أن لا يكون على حساب لحمة المجتمع ، ونسيجه الاجتماعي ، وصحته النفسية والاخلاقية . ونحن جميعاً نعلم ، أننا في سعينا وراء النهضة المنشودة ، يجب أن لا نضيع أعز ما عندنا وما نفاخر به الشعوب الصناعية المتقدمة ، وهو ، التفاعل الانساني بين أفراد شعبنا وفئاته .. تفاعل المحبة ، والنخوة ، والترابط الاجتماعي » .

من خطاب للملك
« حسين بن طلال »

تأشيرة دخول إلى الكتاب

من أفكــــار
« حزب البعث العربي الاشتراكي »

« لأنّ الوحدة – وهي أهمّ وأعلى هدف من أهداف الثورة العربية – ينبغي أن تعكس الظروف المصيرية للأمة . أي ينبغي أن تكون صورة الأمة في حالة النضال والصراع من أجل الوجود ، ومن أجل تحقيق الذات ، وأن تعكس في آن واحد ، ضرورة الاندفاع الثوري ، ومستوى النضج الذي بلغته الثورة العربية في هذه المرحلة » .

قصة هذا الكتاب ... قصة

غادرت الدوحة - عاصمة قطر - في العشرين من شهر تموز - يوليو ١٩٧٦ بعد تقديم استقالتي الى الشيخ عبد العزيز بن خليفة آل ثاني وزير المالية والبترول القطري، منهيا عملي كمدير عام ورئيس لتحرير مجلة "ديارنا والعالم"، وتوجهت الى أبو ظبي في زيارة خاصة تلبية لدعوة تلقيتها من السيد عبد الله النويس وكيل وزارة الاعلام في دولة الامارات العربية المتحدة، لم يكن في ذهني تصور للعمل هناك، فقد اتخذت قراري بالهجرة من الخليج العربي بعد المعاناة التي كابدتها خلال تجربتي الصحفية والاعلامية في كل من الكويت وقطر. وبلقائي مع المسؤولين في الوزارة، ومع عدد من أصحاب الصحف، أسعدني أن أتلقى عروضا للعمل في أبو ظبي، ولكنني رأيت أن أنفذ قراري، وأتابع رحلتي بعدما أنهي زيارتي بجولة استطلاعية تشمل كافة الامارات السبع التي يتألف منها الاتحاد، ثم أختتم وجودي في منطقة الخليج بزيارة لدولة البحرين، وبعدها أتابع السفر الى حيث أتمكن من التفرغ لتأليف هذا الكتاب عن منطقة الخليج العربي من خلال معايشتي الذاتية لاوضاعه الحياتية على الطبيعة والواقع، عبر ثماني سنوات. ومقارنة الواقع بالصورة الاعلامية التي ترسمها له الصحافة العربية.

واستغرقت الزيارة أكثر من شهرين، وشملت جولاتي كلا من "أبو ظبي، دبي، الشارقة، أم القيوين، عجمان، الفجيرة، ورأس الخيمة" وجميعها تشكل اتحاد الامارات السباعي. ثم اختتمتها بالبحرين، والكويت، وهي أول دولة خليجية وفدت اليها، كان عملي في صحافتها هو المفتاح لتجربتي الخليجية.

*   *   *

ان التجربة الذاتية التي عشتها في الكويت، والظروف التي جعلتني أشارك الفرد الكويتي حياته العامة والخاصة، بحكم عملي في الصحافة الكويتية كمحرر للشؤون الثقافية والفنية والاجتماعية، ثم كسكرتير تحرير، ومدير للتحرير، ومحقق في القضايا السياسية المحلية في مواقع متعددة من "النهضة، الرأى العام، صوت الخليج واليقظة "على مدى خمس سنوات، أتاحت لي متابعة الحياة بتطورات أحداثها.. ووجدت نفسي - عبر هذه التجربة - شاهدا لتلك الاحداث، ومراقبا للتغييرات التي طرأت على الحياة. ومن هذا المنطلق أحاول تعرية الواقع وتحليله بعيدا عن الوثائقية التسجيلية، مهملا التهويل والتضخيم اللذين فرضتهما على بعض المؤسسات الصحافية في بعض بلدان الوطن العربي أسباب، وظروف مرحلية، أو شخصية في طابعها العام.

وان كنت بالهوية التي أحملها، مواطناً عربياً من سورية... فان انتمائي القومي لا يعفيني من القيام بدور مسؤول نحو وطني، متوخياً الاسهام في بناء الوطن المثالي الذي يعيشُ في الوجدان العربي، وخلق الدولة العربية المثلىٰ التي - كما قال سقراط - تنتظم أمورها باعتبار ما هو "خير" اعتباراً معقولاً.

ثم ان تجربتي في قطر التي بدأتها بعد الكويت في مجلة "العهد" وختمتها في مجلة "ديارنا والعالم" التي كان لي «هَمُّ» تأسيسها وتَوَلّي رئاسة تحريرها. هذه التجربة التي استغرقت زهاء عامين، جعلتني أتعمّق أكثر في فهم الحياة الصحراوية، وأكتشف - من خلال المعاناة الذاتية - حقيقة الانسان الصحراوي، نفسيَتَه، أهواءَه، تطلعاته.. ولاءَه، إنتماءَه، قِيَمَهُ والقِوى التي تقوده وتحكمه. حتى بلغت درجة من الاشباع الذي يُتعِبُ، ولا يَهدّ.. يرهق، ولا يُميت، فآثرتُ بعدئذ "الانسحاب" قبل فوات وقت الانسحاب.. وقرّرتُ أن لا تكون لي تجربة أخرى في أيّ بلد من بلدان صحراء الخليج العربي..

واذا كانت "الكبوة التي لا تميت :تقويّ" فإن الأفضل أن لا يُعَرِّضَ

المرء نفسه للكبوة، خاصة اذا كان هذا المرء من النوع الذي يحب مواجهة الريح، ولا ينحني أمام العاصفة.. بل يفضل الموت كالشجر واقفا.
ومن منطلق الايمان هذا، ختمت جواز سفري بتأشيرة الانسحاب من صحراء الخليج العربي.. واتجهت بعيدا.
وكانت أول مرة لي أتجاوز حدود الوطن العربي الى بلد غربي مستهدفاً الاقامة فيه. ولقد طابت لي فكرة الاقامة في احدى العواصم الاوروبية، بعد قيامي بزيارات صحفية، وخاصة، الى بعض عواصم الغرب، فراق لي مناخ الحرية التي يتمتع بها المواطن، والذي توفره له النظم الديموقراطية في تلك البلاد. ولأن بريطانيا تعتبر أمّ الديموقراطيات، والمواطن فيها يتمتع بحرية التفكير، والقول، والعمل، فقد اخترت لندن مقراً للاقامة بعد أن اتخذت قراري بالهجرة الاختيارية.
ومنذ وصولي، طفقت ارتب أوراقي، وكتبي، والمراجع التي حملتها معي لأبدأ بدراستها، وإعادة النظر في بعضها، ولأشرع من ثم بوضع هذا الكتاب، الذي أردت أن يكون كتاباً موضوعياً، يروي بأمانة وصدق، وباحساس المواطن العربي، تجربة واقعية ليس للعواطف فيها اي دور، وليس للعلاقات الشخصية التي تربطني ببعض من عرفت، أو ارتبطت معهم بصداقات خاصة خلال وجودي في منطقة الخليج العربي، أي تأثير على موضوعية ما تضمه دفتا الكتاب، منطلقاً في مهمتي من مبدأ القاء الضوء على الحقائق، التي تفضي الى العدالة. هذه العدالة التي عَرّفها "سقراط" بقوله "إن أقوم الطرق للوقوف على حقيقتها، هو البحث عنها حيث تبدو مظاهرها كبيرة واضحة للعيان - أي في المبادىء التي تجري بموجبها المجتمعات البشرية - أي في الدولة. ولا بد أنها تكون على أوضح ما تكون في الدولة المثلى". ومعتمداً المُثلَ العليا التي آمنتُ بها منذ فتحت عينيّ على أسُسِها وعلى مبادئها، حتى اليوم الذي قرأت نداء الرئيس حافظ الاسد، يدعو الى الحفاظ عليها في خطابه الذي القاه بمناسبة الذكرى الثالثة عشرة لثورة آذار - مارس ١٩٦٣، وقال فيه:
"الحياة بدون مثل عليا ليستْ جديرةً بأن تعاش.. والمرء بدون هذه المُثلِ ليس أكثر من كائن طفيليّ على مسرح الحياة. والمرء عندما يكون كائناً طفيلياً، يتراوح وجوده بين الشر والعدم، وكلاهما عبء على الحياة، كلاهما عدو للحياة".
ولقد ازداد يقيني بضرورة تأليف الكتاب، ليكون علامةً مميزةً بين الكتب

الموضوعة عن دول الخليج العربي، التي تراوحت بين الاصالة، والغثاثة. فمعظم ما قرأت من كتب عن دول الخليج العربي كانت ذات طابع تجاري صرف.

ولما شرعت فى ترتيب أوراقي، واختيار المراجع التي سوف اعتمدها في هذا الكتاب. استبعدت استبعاداً تاماً هذا النوع من المؤلفات.وأُمسِكُ هنا عن الاشارة اليها،والاشارة بكتابها،حتى أتجنبَ الاساءة غير المقصودة الى أسمائهم أو الى كل من كتبوا عنهم، لهم، أو عليهم.

وخلصت بعد غربلة دقيقة الى اعتماد عدد قليل من الكتب الموضوعة عن دول الخليج العربي، خصّصَ بعضها للبحث التاريخي، أو الاقتصادي، أو السياسي، وجاءت بمجملها كتبا تسجيلية، تروي الوقائع بالارقام، والشواهد والوثائق. كما لجأت الى بعض الصحف والمجلات للوقوف على المعلومات الارشيفية، وبعض المنشورات الرسمية لوزارات الاعلام في دول الخليج العربي.

* * *

ولاستكمال المعلومات، لاعطاء صورة متكاملة في هذا الكتاب، كان لا بد من تخصيص فصل عن الجنوب العربي. فقمت قبل الشروع بتأليفه بزيارة خاصة الى اليمن الشمالي "الجمهورية العربية اليمنية" لأشاهد على الطبيعة حقيقة الصورة . الواقعية في ذلك الجزء من الأرض العربية ..

وخلال الشهر الذي أمضيته هناك - بدون دعوة رسمية - أحببت الوصول الى اليمن الجنوبي، والى سلطنة عمان ، لكن سلسلة عوائق اعترضتني فلم أتمكن من القيام بهذه الجولة.. كما لم تتح لي فرصة لزيارة المملكة العربية السعودية، وهي أهم دول المنطقة. فعدت الى لندن في أوائل شباط - فبراير عام ١٩٧٧، وبدأت في تأليف هذا الكتاب، بعد فروغي من دراسة المراجع الجديدة التي حملتها من اليمن معي الى لندن.

وبعد،...

لقد وضعت هذا الكتاب لأروي قصة المكابدة التي عايشتها خلال سنوات امتدت من أواخر عام ١٩٦٩ الى أوائل عام ١٩٧٧. وحسبي في هذا، أنني احتكمت الى الوجدان والضمير. والتزمت المُثلَ التي أومن بها. ورحم الله امرءاً جب المغيبة عن نفسه، وعن سواه، ولم يَخْشَ في قول ما يراه حقاً،لومة لائم.

من أجل ذلك، كان هذا الكتاب.

ولما أخذت أبحث عن ناشر، بدأت جدران الفولاذ ترتفع في وجهي. فدور النشر العربية معدومة الوجود في لندن، والوصول الى دار نشر في بيروت، دونه "خرق القتاد" لأسباب عديدة أبرزها، في الحرب الدائرة هناك. وحين قامت منشآت طباعية عربية في لندن للصحف المهاجرة بدأتُ اتصالاتي بها ، لكن واحدة من هذه المؤسسات لم تقبل القيام بمهمة النشر!.. لماذا ؟؟.

لأن سطوة المال وسيطرته جعلت الخوف يخلع القلوب.

أَحَدُ أصحاب هذه المؤسسات الطباعية قال لي بعدما فرغ من قراءة المخطوطة "أنا إنْ نشرت كتابك هذا، فسوف تتحول مؤسستي الى خراب ينعق البوم في أطلالها" وقال آخر "هل تريد أن تقطع رزقي الى الأبد" وأجابني ثالث "لا ياصديقي، لن أركب موجة هذه المغامرة القاتلة، لأن المعونات التي تتلقاها صحيفتي من دول الخليج، سوف ينقطع نهرُها بعد نشر كتابك، وأنا وإنْ كنت مؤمنا بمضمون الكتاب، فلست بمؤمن باستمرار صدور صحيفتي بعد صدور كتابك عن مؤسستي".

وكانت تلك الأجوبة كافية لإقناعي بعدم جدوى الوصول إلى نتيجة مع أحد الناشرين.

ومر الأسبوع بعد الأسبوع، والشهر يعقب الشهر حتى انقضى اكثر من عام دون ان تتاح للكتاب فرصة النشر!..

حتى كان يوم...

كنت أمشي في شارع "بارك لين" الممتد من "ماربل آرتش" بمحاذاة حديقة "هايد بارك" الى موقع فندق "لندن هيلتون" الذي ما أنْ بلغتُ واجهة مبناه حتى اصطدمتْ عيناي بوجهٍ أعرفه معرفة جيدة، لكن اسمه غاب عن ذهني، فتعمدت الدنو من صاحبه الذي ما ان رآني حتى هتف :

- أهلا بالفاروق.. أهلا بصديقي القديم.

واقبلت عليه أحيّيهِ مصافحاً والحيرة مرسومة على وجهي، فتابع الرجل متسائلا :

- أظنك لم تتذكرني أنا "....." هل تتذكر هذا الاسم ؟

واجبت بابتسامة خجلى :

- الوجه أذكره جيداً.. اما الاسم.. فعذراً منك.

كان الرجل عضواً في مجلس الامة في إحدى الدول الخليجية.

وبعدماتبادلنا بعض الذكريات دعاني الرجل الى فنجان قهوة في مقهى الفندق.

وحول المائدة بدأنا نستذكر ونستعيد بعض الذكريات، ولما استأذنت للانصراف، اصر الرجل على دعوتي للعشاء وتمضية السهرة معه قائلا إنه وصل ليلة امس الى لندن؛ويشعر بالوحدة والفراغ؛وكم يسعده ان اقضي معه امسية اليوم.
واتفقنا على موعد اللقاء بعد ان أعطاني رقم حجرته في الفندق وسجل في مفكرته عنوان بيتيورقم تلفوني.. ومضيت.

❋ ❋ ❋

حوالى الساعة التاسعة من مساء اليوم نفسه، وقبل حلول موعدي مع الصديق عضو مجلس الأمة الخليجي بساعة، تلقيت منه اشارة تلفونية يستعجلني فيها "أعطني عنوان بيتك.. سأمر بالسيارة لننطلق قبل العاشرة". وما كدت أفرغ من ارتداء ملابسي ؛ حتى كان يقرع الجرس. ولم يكن بيتي يبعد عن "لندن هيلتون" الا عشرين دقيقة بالسيارة. وحين فتحت الباب، حيّاني رجل انكليزي؛داعياً إياي إلى "رولز رويس" بيضاء تقف بمحاذاة الباب ويطل من نافذتها وجه الصديق الخليجي عضو مجلس الأمة.
خلال عبور "الرولز رويس" شوارع لندن، كنت والصديق الخليجي نتبادل الأحاديث العابرة، ونستذكر بعض مواقفه في جلسات مجلس الأمة التي كنت أحضر بعضها بحكم عملي الصحفي، ونتبادل الضحكات بعد كل حكاية، حتى توقفت بنا السيارة امام نادٍ ليليٍ للقمار، من اسرة كازينوهات القمار المنتشرة في قلب لندن؛والتي تعرف كيف تصطاد منتفخي الجيوب بدولارات وجنيهات البترول العربي.
أمام مدخل النادي،استقبلنا رجل بحلة مميزة، فتح باب السيارة ورفع يده بالتحية.. احسست بالانكماش والحرج، لكنّ الصديق الخليجي شجّعني قائلاً :
– يبدو انك فقير بتجاربك مع نوادي القمار !
– بل إنها تجربتي الاولى منذ حللت في لندن مقيماً.
– تقدم.. تقدم.. لا تخشى شيئا فالفلوس تحني لك الرؤوس.
ومشينا معاً..
وفعلاً كانت الرؤوس تنحني امامنا، ليس احتراماً لشخصي المتواضع ككاتب وصحفي، بل للثروة التي يحملها عضو مجلس الأمة الخليجي في محفظته.
وفي ردهة الاستقبال، قادتنا حسناء.. حسناء جداً الى ركن قصيّ في

اقصى مطعم النادي، وحين استقر بنا المقام حول المائدة، جاءتنا حسناء أخرى بلائحة الطعام فشكرها الصديق ثم قال لي :
- لك ان تختار ما تشاء من لذائذ الشراب والطعام.
فرغنا من اختيار طعامنا، وقبل ان يتم إحضاره استأذنني الصديق ومضى الى الداخل. خلال فترة قصيرة توزعت الأطباق فوق المائدة، فلبثت انتظر الصديق، ولما عاد كان وجهه يطفح فرحاً وبشراً.. اتخذ مجلسه بمواجهتي وقال :
- إنّ وجهك خير عَليّ يا فاروق.. تصور، في اقل من ربع ساعة؛ربحت أكثر من الف جنيه استرليني.. هل تصدق، إنها اول مرة اربح فيها مثل هذا المبلغ منذ ان اعتدت على زيارة نوادي القمار في لندن.. يجب ان ترافقني كل يوم.. إنني استبشر بوجهك يا صديقي.. يا الله.. تفضل.. تفضل.. بسم الله الرحمن الرحيم.
وبدأنا نأكل ونتحدث.
إنها لمفارقة عجيبة.. في أقل من ربع ساعة يربح هذا العضو المهم في مجلس الأمة الخليجي الف جنيه، وسواه من المهاجرين العرب من عمال وطلبة،ومفكرين،ومضطهدين في بلدانهم جاؤوا الى لندن للاحتماء بمظلة الديموقراطية، لا يجدون ما يسدّون به رمقهم اليومي..
بل إنني لم أتمكن بعد عام على وجودي في لندن؛من إيجاد ناشرٍ لكتابي، ولم تتوفر لدي تكاليف نشره؛لأن دخلي من عملي كعامل غير متفرغ في القسم العربي بهيئة الاذاعة البريطانية، بالكاد يغطي نفقاتي ونفقات أسرتي.
كنت افكر بهذه المفارقة وغيرها من المفارقات المماثلة؛وانا أغصُّ باللقمة في فمي.. وتساءلتُ في سرّي، متى يستيقظ وجدان الانسان العربي ؟..
ويبدو انني كنت أفكر بصوت مسموع، فقد نظر إليّ صديقي عضو مجلس الأمة الخليجي وقال :
- إسمع يا صديقي، ما دام المال يجري أنهاراً من منابع البترول ليصب في جيوبنا، فنحمله معنا لنبدده هنا.. وهناك.. على موائد القمار وعلى المومسات، ستبقى العدالة الاجتماعية مفقودة، وسيبقى سؤالك قائما.. لأن المال يخدّر الوجدان.. والآن، كلْ، واستمتع بعشائك؛وفي نهاية السهرة لدي سؤال سأطرحه عليك.
فرغنا من عشائنا، وانتقلنا بعد ذلك من صالة الطعام إلى صالة

الألعاب ٠
أغلبية الوجوه تطل منها عيون سود بعضها يتابع الأرقام والأوراق بخوف وقلق ٠٠ وبعضها الآخر يشع ببريق الفرح ، ويضيء بنشوة الربح ٠
وجوه عربية من المشرق والمغرب حمل اصحابها أكداساً من المال تاركين الأوطانَ تتردّى في وهاد التخلف ، تائهين هنا في كازينوهات القمار ، متهالكين على الموائد الخضراء وبين السيقان العارية ٠

* * *

لبثت مع صديقي الخليجي متنقلاً من مائدة الى اخرى ، أُحملق بالجنيهات التي ينثرها ؛ فيخسر مرة ويربح مرات ، حتى اذا ما قاربت الساعة على الثالثة صباحاً ؛ كان النعاس قد اثقل جفوني ، وأكوام المال تَجمّعتْ بين يديّ صاحبي ٠
ولما ابديت له رغبتي بالانصراف رمقني بعينين حمراوين ونهرني قائلاً :
– ما بك يا رجل ؟ ٠٠ إننا نتسلّى ونربح ونستمتع ، خذ ٠٠ خذ إلعبْ ولا تدع الملل يتسرب الى نفسك ٠
ودفع إليّ بحفنةٍ من "الفيش" تلقفتها منه ومضيت بها الى الصندوق فأحصاها الصراف واعادها إليّ نقوداً ورقية من فئة العشرين جنيهاً ، بلغت اربعمائة جنيه ٠ وضعتها في جيبي ، ورجعت الى موقع صديقي الذي سيطرت عليه مائدة القمار ، لدرجة انه لم يشعر بوجودي الى جانبه ٠
كانت الساعة قد جاوزت الرابعة حين كانت جيوب صديقي لم تعد تسع المزيد مما جمعه من القطع المستديرة "الفيش" ، التي تترجم عند الصراف الى اوراق مالية ، وفوق ما اختزنته جيوبه ، كانت ما تزال امامه على المائدة اكوام اخرى وَزّعَ بعضَها فوق عددٍ من الأرقام ، ثم التفت إليّ وقال :
– لماذا لا تلعب ٠٠ أليسَ عندك إلهام لرقمٍ معين ؟ ٠
قلت له :
– لقد خسرت ما أعطيتني إياه من "فيش" على المائدة المجاورة ، أمّا إلهامي على مائدتك فيقول ان تضع بعض الفيش على رقم "١٤" ٠
تناول صديقي واحدة من فئة المائة ؛ ورماها في المربع الرابع عشر ٠٠ دارت العجلة بينما دارت الكرة في الاتجاه المعاكس لتستقر على الرقم ١٤ ٠
وصرخت كالمذعور :

- لقد ربحت .. ربحت !!
ونظر الصديق في وجهي وهتف :
- ألم أقل لك إن وجهك خيرٌ عليّ يا فاروق.. خذْ.. خذْ.. ودفع إليَّ بكومة اخرى من الفيش، وتلقى كمية الفيش الجديدة التي ربحها من رقم ٤١؛بينما خسرت الارقام الاخرى التي كان قد وزّع عليها عدداً من "الفيش" لا أعلم كميته.
حملت كومة "الفيش" ومضيت رأساً الى الصراف فتحولت بين يَديَّ إلى مبلغ سبعمائة جنيه استرليني.
لم اصدق أنني املك الآن الفاً وثلاثمائة جنيهٍ استرليني؛تجمعت في محفظتي خلال دقائق معدودات. عدت إلى صديقي؛أمنّي النفس بحفنة ثالثة؛فوجدت اكوام الفيش أمامه قد تضاءلت كثيرا.. هذا يعني انه بدأ يخسر.. لم اكلمه بل لبثت أحملق؛ بالكرة التي تقفز من رقمٍ إلى رقم.. ولمّا خسر جميع الفيش المتجمع امامه على الطاولة، دَسَّ يده في جيبه، وأخرج حفنة جديدة نثرها فوق مربعات الأرقام، فلم تجلبْ له شيئا، وحين دَسَّ يده مرة اخرى؛أمسكته وقلت :
- كفاك الليلة.. لقد بدأت تخسر.
فاسكتني قائلا :
- هل لديك إلهامٌ آخر ؟؟
أجبته بنبرة لامبالية :
- صفر !
قال :
- نادراً ما تربح الصفر.
قلت :
- تسألني إلهامي، وإلهامي يقول صفراً !.
ورمى قطعة بمائة جنيه فوق الصفر. ومن غريب المفارقات؛أنَّ الكرة استقرت فوق الصفر لتجلب إلى صديقي ثلاثة آلافٍ وستمائة جنيه.. وما ان تجمع "الفيش" الجديد امامه، حتى دفع قسما كبيراً منه إلى جيبه ونثر قسمًا آخرَ على أرقامٍ مختلفة، دون ان يدفع ليَ شيئا.
الساعة تقترب من الخامسة صباحاً.. وكرة من الشوك تملأ فمي؛ ولساني تحوّلَ إلى خشبة لكثرة ما دخنت من سجائر، ولم يرتوِ جشعٌ صديقي.
قلت له :
- إني ذاهبٌ إلى صالة الطعام.. لقد تعبتُ من الوقوف؛وجفَّ حلقي من

التدخين .
قال لي :
- سأتبعك بعد لحظات .
تركته ومضيت فرحاً بالألف والثلاثمائة جنيه، غير آسف على السبعة آلاف جنيه التي ربحها بفضل "الالهام" الذي أوحيت به إليه . طلبت فنجان قهوة، اخذت رشفة بهدوء؛ فيما كان صديقي الخليجي يواصل اللعب .
ولما فوجئت به يربت على كتفي قائلاً .. هلمّ نغادر هذا المكان اللعين" حسبت انه قد خسر جميع ما كان ربحه، لكنه تابع قوله "سأكتفي الليلة بما ربحت" وبدأ يفرغ جيوبه ،من "الفيش" ويحصية؛ حتى بلغ مجموع ما ربحه ثلاثة عشر الف جنيه استرليني وبضع مئات؛ حملها في صندوق وأشار عَلَيّ ان نمضيَ لنصرفها من الصندوق .
حين حملتنا "الرولز رويس" المنتظرة بسائقها امام مدخل الكازينو، كانت الساعة قد جاوزت السادسة صباحاً . توجهنا إلى فندق "لندن هيلتون" وقبل ان يغادر صديقي السيارة، أشار على السائق ان يوصلني إلى بيتي؛ ثم متوجها بحديثه إليّ :
- سأتصل بك عندما أستيقظ .
قلت له :
- خلال العشاء قلتَ ليَ أنّ لديك سؤالاً سوف تطرحه عَلَيّ في نهاية السهرة .
رفع حاجبيه باستغراب :
- لم اعد اذكر .. سوف نتحدث مساء غد .
كان يعني مساء اليوم طبعاً .. انطلقت بي السيارة الى بيتي، ولأول مرة منذ قدومي الى لندن؛ أنام دون ان اخلع ملابسي، واستيقظت قبيل الرابعة عصراً .
كان الحمام في بيتي مشتركاً، مُنَيِّتْ النفس بحمامٍ ساخنٍ في "الهيلتون"، اتصلت بصديقي تلفونياً، فردّ علي والنوم يغالبه . اخبرته برغبتي في أخذ حمامٍ ساخنٍ في غرفته، فقال تعال وقتما تشاء . أبدلت ملابسي وغادرت بيتي فوراً .
بعدما فتح لي الباب، عاد الى السرير مواصلا نومه، بينما نزعتْ ملابسي ودخلت الحمام وأمضيت فيه أكثر من ساعة .
إنها المرة الاولى التي استمتع فيها بحمام حقيقي منذ اكثر من عام،

وحين فرغت من الاستحمام، استلقيت على السرير الآخر مستسلما للتفكير.
عضو مجلس الأمة الخليجي يستغرق في نومه، وشخيره يملأ جنبات الغرفة، وعندما يصحو، سوف يبدأ جولة جديدة على موائد القمار، قد يربح في نهايتها مبلغاً يوازي ما ربحه بالأمس، وقد يخسر ما ربحه وفوقه ما يوازيه مما وفره له بترول النظام "الديموقراطي". وفيما كنت افكر سادراً في تأملاتي، مستغرقا في تفكيري، سمعت طرقاتٍ متعددة على الباب.. اتجهت اليه وفتحته وأنا ما أزال ملتفاً بثوب الحمام، ووجهاً لوجه، وجدت نفسي أمام شقراء حسناء. عيناها الزرقاوان تتألقان بشبق عجيب. رَمَشَتْ الحسناء بعينيها، وابتسمت على استحياء وهي تنطق بكلمات الاعتذار لأنها - على ما يبدو - اخطأت الغرفة. ولما سألتها عن رقم الغرفة، والشخص الذي قدمت لمقابلته، ذَكَرَتْهُما لي. فابتسمت، داعياً إياها للدخول "لأنكِ لم تخطئي يا آنسة.. فالغرفة هي الغرفة المقصودة، والمضيف هو المضيف نفسه ولكنه نائم الآن".
دخلت الحسناء الانكليزية وهي تسألني :
– لكنني لم أتعرّف اليك يا سيد.
– أنا مرافق السيد "....." الخاص، ومهمتي السهر على راحته.. وحراسَتِهِ.
وعلّقتْ الحسناء بايجاز :
- يبدو أن السرقة التي تعرّض لها في زيارته السابقة، علمته اتخاذ الاحتياطات اللازمة.
وأومأت برأسي موافقا، وأنا لم أكن اعلم شيئاً عن الموضوع. سألت الحسناء الوافدة ان كانت تريدني ان اوقظ لها صديقها الذي تعرف عنه اكثر مما اعرف انا، فقالت، لا تتعب نفسك معه، أنا سأتولى ذلك بنفسي. وجلستْ على حافة سريره، وبدأت توقظه بطريقتها الخاصة . وحتى لا أشغل نفسي بمراقبتها، حملت ملابسي الى الحمّام وارتديتها، ولما رجعت كان صاحبنا يتمطى ويطوق عنق الحسناء، وحين رآني سألني مندهشا - بالعربية طبعا :
– متى جئت ؟.. ومن فتح لك الباب ؟
ويبدو أنه نسيَ أنني حادثته بالتلفون، وانني جئت لآخذ حماماً ساخناً، وانه هو نفسه فتح لي الباب وعاد الى نومه وشخيره، قلت له :
– الأجدر ان تسألني من فتح الباب لحسنائك ؟.

وذكرته بكل شيء، وبما قالته لي الفتاة، فضحك وقال موجها الحديث بالانكليزية للفتاة :
- انه صديقي، وليس مرافقي كما ادّعى لك، فإنْ كان يعجبك يمكنك ان تستمتعي معه الآن و...
ولم أدعْه يكمل "خطابه" بل قاطعته قائلا :
- لقد انتظرت استيقاظك لأتلقى السؤال الذي قلت لي بالأمس انك ستوجهه إليَّ في نهاية السهرة.. وما دامت هذه الحسناء معك الآن، فاعتقد انك ستواصل النوم، اليس كذلك ؟
ضحك الصديق - المشترك - وأمسك بيدي قائلا :
- لا.. لا.. لن تتركني معها وتذهب.. سندعوها لتمضي معنا السهرة الليلة بعد ان تدعو احدى صديقاتها.. اما السؤال الذي سأطرحه عليك فلم تبق له ضرورة الآن!!
لم ترضني اجابته، فاعتذرت بأنني يجب ان اعود الى البيت، وسأوافيه في العاشرة مساء على شرط ان لا ينسى السؤال.

وقبل العاشرة اتصل بي ليقول انه في طريقه إليَّ. وعزمت حين وصوله ان أدعوه الى فنجان قهوة في بيتي؛لأتمكن خلال ارتشافه من محادثته حول مشروع كتابي؛والعوائق التي تعترض نشره. وحين وصل بسيارة "الرولز رويس" كانت معه فتاتان، عرفت الأولى، اما الثانية فقد قدمها إليَّ على انها ستصحبنا سهرتنا هذه الليلة، واستحثني على دخول السيارة، لكنني صارحته برغبتي في دعوته الى فنجان قهوة يتيسر لنا خلال ارتشافه وقت للحديث الجاد بعيدا عن السهر.. والدخان، ولعب القمار الذي يفتك بالأعصاب.
وكان جوابه سخيفا ومفاجئا حين قال :
- إركب يا رجل، ليس لدينا وقت نضيعه في التّرّهات.. والأحاديث الجدية؛.. تعال. ننطلق ونستمتع فليس في العمر بقية نضيعها في عبث أحاديث لا جدوى منها ولا طائل.. تعال اركب.. اركب.
إجابته ملأت صدري غيظا. قررت ان لا استجيب لدعوته هذه الأمسية. قلت :
- انني مضطر للبقاء في البيت، فلديّ عمل عَلَيّ ان انهيه. وفاجأه ردي. كيف أرفض دعوته وصحبة فتاتين من أجمل فتيات لندن ؟..
وكيف لا يسيل لعابي امام تدفق "الفيش" الذي كان يتراكم امامه ليلة

أمس على المائدة الخضراء ؟
نهرني بقوله مازحاً :
- انتم الصحفيون هوايتكم البحث عن المتاعب .. إغنمْ زمانك واركب ، فما تخسره اليوم لن تربحه غداً ، والعمر كله ماض . ألم تر كيف ربحنا امس؟ . طبعاً كان وجهك عليّ خيراً .. وانا لا اريد ان اخسر الليلة .
إذنْ بدأ صاحبي عضو مجلس الأمة الخليجي بتفلسف ، وما دام قد قرر ان يصير فيلسوفا ، اذن علي أن اواجهه بالحقيقة .
- إسمع يا صديقي . ان حسن الحظ والمصادفة جعلانك تربح اكثر من ثلاثة عشر الف جنيه ، وهذا المبلغ يكفي لنفقات عائلة مؤلفة من خمسة أشخاص لمدة سنتين تعيش في لندن . وانا لم اطالبك بالبحث عن عائلة مستورة ، تهدي اليها المبلغ ، وانت ان فعلت لن تخسر شيئا طبعا . ولكنني - كصديق - أطالبك بالمساهمة في مشكلتي ، خاصة وان وجهي كان خيرا عليك مساء امس كما تقول . فهل تريد ان تدخل البيت لنتحدث قليلا ؟
اخذ صديقي - العضو المحترم - يهتز في مقعده بين الفتاتين وهو يضحك ويقهقه واخذت عيناه تدمعان من شدة الضحك ، والفتاتان وانا في حالة ذهول ودهشة . فالفتاتان لا تفهمان حوارنا .. وانا - كما احسب - لم ألقِ على مسامعه نكتة رخيصة . وبعد وصلة الضحك والقهقهة ، تنحنح الصديقُ الشهم وقال :
- تدري يا فاروق ، ذكرتني بحكاية صديقنا الصحفي الساخر عبد الله الشيتي مع أحد شيوخ الخليج ، وهو مشهور ببخله ، عندما اراد ان ينهي حديثه فقال "لقد امضينا معاً يا عبد الله ساعة ونصف الساعة في حديث ممتع لن انساه مدى عمري" . وكان عبد الله الشيتي يعرف ما انطبع عليه الشيخ من بخل ، فأجابه على الفور "طال عمرك دعنا من النصف وخلّينا نتذكر الساعة" . وأدرك الشيخ ما رمى اليه عبد الله ، وخوفا من لسانه السليط ، أمر له بساعة ثمينة ماركة "رولكس" عليها صورة الشيخ بالألوان الطبيعية ، أخذها عبد الله شاكراً ، وغادر مجلس الشيخ ، لاعناً صورته المطبوعة على ميناء الساعة .
واستطرد الصديق قائلا :
- دعنا نذهب الآن ، وأَعِدُكَ بأن أحلّ لك مشكلتك غداً .. فوجهك خيرٌ عليّ وبركة .
ولم أجد مناصاً من الاذعان ، فركبت الى جانب السائق ، وانطلقت بنا

"الرولز رويس" الى "البلاي بوي"٠
تناولنا العشاء مع الفتاتين، واستعرضنا احداث ليلة الأمس، ثم في لحظة صفاء وانسجام مع نفسه، سألني الصديق عضو مجلس الأمة عن المشكلة التي تعترضني٠
اختصرت الاجابة قائلا :
- ليست لدي مشكلة بالمعنى الصحيح٠ لقد فرغت من وضع كتاب عن تجربتي الخليجية خلال السنوات التي عملت فيها في صحافة الكويت وقطر، أريد نشره في لندن على حسابي؛ولست املك نفقات نشره٠
ضحك صاحبي وهو يعابث رفيقته الجالسة عن يمينه، ثم قال :
- وكم تبلغ تكاليف نشر الكتاب ؟
- في حدود خمسة آلاف جنيه استرليني٠
- بسيطة يا شيخ٠ اذا حالفنا الحظ هذه الليلة اعطيك المبلغ كاملاً٠
- لقد ربحتَ ليلة امس اكثر من ثلاثة عشر الفا، نصفها جاء من رقمين اخترتهما لك، وانا لست متفائلاً من ان الحظ سوف يقبل علينا هذه الليلة٠
- ما دمت باقياً معي هذه الليلة فأنا متفائل٠
- ولكنني لا اريد طبع كتابي بمال جاء من المقامرة٠
- وما الذي يهمك انت ؟٠ بس اصبر الليلة، وانا اعدك بتكاليف النشر كاملة مهما بلغت، بشرط ان لا تذكر شيئا عني في الكتاب٠

والتزمت الصمت من جديد٠٠
وبدأت جولة المقامرة بعد العشاء، فكان صاحبي ينثر الكثير من "الفيش" على طاولة الروليت، ولا يسترد الا القليل، او لا يسترد شيئا٠
بعد نصف ساعة من الجولة الأولى، كان صاحبي قد خسر حوالى ثلاثة آلاف جنيه٠٠ واخذ يتململ ويتنحنح ويوقد سيجارة في اعقاب سيجارة اخرى٠٠ ٠ثم انتقل الى طاولة ثانية، هدر فوقها مئات بعد مئات ممزوجة بضوء العين، وحرق الأعصاب، وسفح حبات العرق٠ وظل ينثر المال دون حساب حتى فرغت جيوبه من كافة انواع النقد٠ خسر ما ربحه بالأمس، مضافا اليه مبالغ جديدة بعملات متنوعة من الدينار الى الدولار مرورا بالجنيه الاسترليني٠ وبعدما تم تنظيف جيوبه، اخرج دفتر الصكوك، وحرر صكاً بخمسة آلاف جنيه، وواصل اللعب٠
وبدأت الطاولة تستنفذ منه الألف بعد الألف، حتى لم يبق معه ثمن

علبة سجائر، وكنت كلما حاولت ان اوقفه؛او اثنيه عن الاستمرار في مضاعفة خسائره، نظر إليَّ نظرات ملؤها الحقد، وكأنني أنا من يسلب منه ماله • ولما قلت له كفى يا ••••• قاطعني ناهراً إيايَ بقوله :
- وانت ما علاقتك، هل ألعب بمالك أم بمالي ؟
عندئذ، كان لا بد لي من الانسحاب، فقد كان محقا بما قال•• واكتفيت من الغنيمة بالعودة الى البيت سالما •
لم أعرف بما جرى له وللفتاتين بعدئذ، وحين اتصل بي عشية اليوم التالي داعيا اياي لمرافقته، أجبته معتذراً عن تلبية دعوته الكريمة، ومنذ تلك الليلة لم اعد ارى له وجها •
ولبثت اواصل المسعى بحثا عن ناشر، او عمن يقرضني بعض المال الذي يمكنني من تغطية نفقات النشر • ولما قيّضَ الله ليَ صديقا لم يتردد في إقراضي المال، وكان قد مضى عامان على فروغي من تأليف الكتاب، اذ كان من المفروض ان يتم نشره في مطلع عام ١٩٧٧، وكان لا بد من إعادة النظر في بعض فصوله بسبب بعض الأحداث التي جرت في مناطق مختلفة من بلدان الخليج، أبرزها وفاة الشيخ صباح السالم الصباح امير دولة الكويت، وتَوَلّي الشيخ جابر الأحمد الحكم بعده، وثورة إيران الاسلامية التي فرضت ظروفا جديدة على منطقة الخليج برمّتها، والازمات المتتالية التي تعرّضتْ لها وحدة دولة الامارات •
بسبب هذه الأحداث، ولأن المال المتوفر لا يكفي لتغطية نفقات نشر الكتاب بكامله، قمت بنشر القسم الأول منه والخاص بدولة الكويت، مؤمّلاً نشر الأجزاء الأخرى التالية؛والمتعلقة بدولة قطرودولة الامارات؛ من ريع هذا الكتاب - اذا قيض له ان ينفذ من المكتبات - إذ؛غالباً ما يحدث العكس لبعض الكتب •

* * *

تلك هي جوانب من القصة التي سببت عدم التمكن من نشر كتاب "تأشيرة انسحاب من صحراء الخليج العربي" بكامله•• وتلك هي قصة هذا الكتاب •

فاروق منجونه

مقدمة

« لا بد من النقد بتجرد وقبوله بروح العمل للأفضل . اتمنى ان ارى نقداً دائماً . سأقدِّر عندئذ الانجازات العظيمة » .

« لا بد من توافر نهضة تعليمية وثقافية ، تواكب النهضة الاقتصادية ، أو – الطفرة – الاقتصادية » .

هدى عبد المحسن الرشيد

مرصودٌ أنتَ للصحراء...

« لم تكن الحياة رغدة على الشاطيء الآخر من الخليج . لقد كانت أيضاً قاسية ، مما دفع « شهداد » أن يجمع أسرته ، ويقرر الرحيل سعياً وراء العيش في سواحل الخليج العربي ، فقد يجدون حياة أفضل من الحياة القاسية التي يعيشونها » .

راشد عبدالله
من رواية
« شاهندة »

الصحراء ممتّدة، ممتّدة...
والرمال الذهبية، غول يبتلع الاشواق الوافدة الى الهجير الصحراوي...
الرمال الذهبية ما تنفك تتحرك وتنزلق، تتوّهج.. تنفتح مثل شدقي ديناصور، يريد ابتلاع الحياة بكل معطياتها.
صحراء ممتدة لا تَلِدُ سوى السراب، لكنها مدرستك وقدرك. مرصود انت لكثبان الصحراء، مذ كنت . لا تحزن.. سوف تغادرها، ثم تعود اليها لتكتوي بلاهب حرها.. ثم تودّعها.. وقد تعود اليها أيضا.

❋ ❋ ❋

صحراء، صحراء، صحراء...
أحزانك تبرعم في الصحراء الممتدة، على مدى امتداد حلمك بتحويلها الى وطن حضاري.
لا تحزن !...
أحزانك تتفتح، تزهر آمالا، وتكبر الآمال، والشمس تزداد قسوتها عليك، وتزداد ضراوة.
الشمس لا تذيب الاحزان ولا تبخّرها. الشمس تجعل من أحزانك، فوق جبينك قناديل عافية، تضيء الغد لك، وللآخرين. لا تحزن... أنت تزرع

الصحراء حُبّاً. وحبات الرمال ترصفها بصمات حب ومجد، لأنك تهدر عافيتك فوقها، وتسفح ضوء عينيك بين كثبانها.

* * *

الكثبان الرملية في الصحراء تبتلع كل شيء..
لكن البصمات تبقى...
حتى الصحراء الممتدة، مهما كان حرّها لا يطاق، تبقى البصمات. فأنت، تحت الهجير، وفوق الرمضاء تمشي الى المعرفة. ويوم أن وطئتْ قدماك أول مسالك الخطر والوعورة، كانت بداية رحلتك نحو المستقبل. ليست لك حيلة في كل ما حدث، وفي كل ما سوف يحدث، لأنَّ المصادفات القدرية، هي التي ترسم لك مواقع الخطوات. وأيّ مقاومة يمكن أن تبديها ضد المصادفات القدرية، قد تقودك الى موقع آخر، ربما يكون أشد قسوة من لفح الهجير في الصحراء.

* * *

ها أنت اليوم تغادر الصحراء....
ها أنت تحظى بشهادة التخرج من جامعتِكَ الصحراوية، بعدما أنهيتَ مرحلة من نضالك، لتبدأ، منذ اليوم، مرحلة أخرى من مراحل البحث لاكتشاف الوطن الأمثل.
وعندما وَطِئْتَ الصحراء لأول مرة عام ١٩٥٧، أيامئذ كانت الصحراء عالما بلا ملامح، كوجه أملس الصفحة ولد بلا عينين، ولا فم.
أيامئذ، كان هذا الوجه الصحراوي ملعباً لذوي العيون الزرق، والشعر الاشقر. والانكليز لاعبون مهرة، والوجه الصحراوي بين أيديهم كَطيّعٍ مستسلم كسلان. واللعبة تقتضي رسم ملامح هذا الوجه الصحراوي حسب رغبة أهل اللعبة، وليس كما يشاء أهل الصحراء.

* * *

واللعبة قديمة قدم الصحراء...
لكنك آثرت الانسحاب، فليس لك دورٌ في لعبة اللاجدوى.. ولما وضعت على جواز سفرك تأشيرة الانسحاب من صحراء الخليج العربي، كانت الوحدة الاولى في تاريخك الحديث قد تمت بين مصر وسورية.. وكان في ظنك، أن الوقت قد حان لتؤدي دورك الوحدوي الذي ستدرك رياحه وجه الصحراء.
لكنك لا تملك حق تقرير مصيرك بيديك...
ولأنك مرصودٌ للصحراء، مرصودٌ لهجير الشمس ورمضاء الرمال.. ولأنَّ

الصحراء قدرك ومدرستك، كان لا بد لـــــك مــــن أن تعود،
وَعُدْتَ اليها ....
وكانت بداية الفصل الدراسي الطويل مع انتهاء العام ١٩٦٩. ومرّت السنوات عليك، وأنت ترى يد التغيير ترسم ملامح الوجه الصحراوي..
لكن شواطيء صحراء الخليج العربي التي كانت مسكونة بالاسترخاء، والكسل والخمول، ظلت على استرخائها وكسلها وخمولها.
وبقي الحر لافحا، وظلت الرمال المسفوحة على امتداد الحلم، تغلي تحت وهج الشمس، والهجير يضاعف من قسوة الصحراء. وبدأت معرفتك بحقائق صحراء الخليج العربي، تتسع وتزداد عمقاً، وأنت ترى رياح التغيير تمر على كل بقعة من هذه الصحراء المترامية، فتغيّر كل شيء، ولا تغيّر شيئا في آن واحد.

* * *

تلك هي الاحجية في مربع الكلمات المتقاطعة.
ما هو التغيير الذي حدث ؟.
وما الذي لم يتغير منه شيء ؟.
لقد قامت فوق الرمال مصانع، ومُدَّتْ طرق، وانتصبت عمارات وناطحات، وأنشِئَتْ مطارات... فهل هذا هو التغيير ؟. لقد "نَبَتَ العشب على الطريق، وصار للشجر ظلال، وتلونت الرمال الصفراء بالاخضر".. فهل هذا هو التغيير ؟.. ولقد "تبين للناظر أن التاريخ مَرَّ من هنا، يده مسحت الغبار، والارض المعطاء أفرغت ما في جوفها ليطفو على سطح الصحراء، عمراناً، وبنياناً، وزرعا" فهل هذا أيضا هو التغيير ؟.. وهل هذه المظاهر كلها تعني أن نوع الحياة قد تغير، أو أصابه تطور ؟..
أبداً...
فالحياة ما تزال تقسو على الوافدين الى صحراء الخليج العربي.. وإذا كان اللاعبون قد تغيّروا.. الا أن اللعبة لم تتغير.
إن انسحاب بريطانيا من صحراء الخليج العربي، جعل أهلها يطلقون شرارة التحول، ويركضون للحاق بركب الحضارة، لكن الراكضين اتجهوا عمودياً، ولم يتجهوا عمقياً، وبهذا الاتجاه العمودي،رفعوا المنشآت على السطح دون أن يفكروا بالأعماق.
زرعوا الصحراءبالاسمنت المسلح، وتركوا الاعماق الانسانية رخوة، هشة وفي ظنهم أن التنمية، هكذا تبدأ. لم يدركوا أن التنمية تعني تغييراً

كاملاً للحياة. ولم يدركوا أن التنمية ليست في بناء المصانع والطرق والمطارات... وليست تغييراً فوقياً.
التنمية تغيير عمقي، وهي تعني قبل كل شيء، حل المعادلة في فهم الحرية القائمة على العدل والمساواة. وهي تعني حل مشكلة الرخاء.. وحل أزمة الحضارة.. والتنمية حتى تتحقق على الوجه الصحيح، يجب أن يكون الانسان محورها.

* * *

عندما يُعرِّفُ "سقراط" فضيلة الشيء بصلاحه لأداء وظيفته، فإنما يعني بذلك أن يبدأ التغيير من الاعماق.
لكن الهُوَّةَ التي كانت قائمة بين الحاكم والمحكوم في صحراء الخليج العربي، إبان الاحتلال البريطاني، ظلت قائمة بعد الانسحاب. والفجوة بين من يسكنون القصور ومن يسكنون أكواخ "العشيش" قبل الانسحاب، ظلت قائمة بعد الانسحاب.. بل ازدادت اتساعا. أليس من المفارقات العجيبة القائمة في صحراء الخليج العربي أن يكون الحر والبرد على سطح واحد ؟. بل إنها احدى غرائب الصحراء الممتدة على مدى الحلم.

* * *

إن الانسحاب البريطاني من منطقة الخليج العربي، أتاح لتلك الصحراء الممتدة على طول الشواطيء الرملية المزروعة بالصخور، أن تتحول الى دول وامارات، بعد أن كانت "مشيخات"ومخابيء للنخاسين والقراصنة، ولكن الاستعمار البريطاني - على ما يبدو - لم يهيء المناخ اللازم لبناء الانسان الصحراوي بناء عقلياً متطوراً، منفتحاً، ليكون مؤهلاً، وقادراً على إقامة "الدولة المثلى" في قلب الصحراء.. الدولة القادرة على مواكبة العصر، ومسايرة الحضارة.
لقد أعطت بريطانيا لحكام تلك المشيخات "صكوك" الاستقلال، وتركت لأعوانها حرية العمل.. وأخذت أيدي الأعوان التي تركها المستعمر تفتح ورشات بناء الصحراء بالاسمنت والحديد، وتحمل في الوقت نفسه، معاول تهديم العقول، وهكذا خيل للحكام، أن بلادهم سوف تتحول الى "جناتٍ تجري من تحتها الأنهار".. وأن الحضارة إلى هذه البقع الصحراوية آتية لا ريب فيها.
وجاءت الحضارة الفوقية...
حضارة الاسمنت المسلح، وحضارة استبدال "الدشداشة" بالبنطلون.. وحضارة استبدال وسائل النقل والمواصلات.. صار الصحراوي يستعمل

السيارات والطائرات، بدلاً من الجمال.. وصار له اتصالات مع العالم بواسطة المحطات الارضية للاتصال عبر الاقمار الصناعية.. وكلما أنشئتْ محطة.. هَلّلتْ أجهزة الاعلام للإنجاز الحضاري؛الذي حققته البلاد. وكأن الانجازات الحضارية تتحقق بالشراء وليس بالخلق والابتكار! .. وبقي الشيوخ يمارسون الحكم بالبيانات والخطابات.. وأجهزة الاذاعة والتلفزيون تصفق لهم.. لكن الشعوب ظلت ترسف في أغلال التخلف.. والحياة تزداد قسوة على المواطن والوافد... ولا أحد يفكر، أو يجرؤ على المطالبة بالتغيير.

* * *

ماتزال الفرصة موجودة..

وما يزال الظرف مواتياً للتغيير.

إن حكام صحراء الخليج العربي بما لهم من قواعد قوة ونفوذ، رَسَّخَتْها محبة شعوبهم لهم، وصنعها لهم التفاف شعوبهم حولهم، قادرون على أن يبدأوا معركة التغيير بما أتيح لهم من وفرة في النفط الذي جلب لبلادهم الثروات الطائلة. قادرون على أن يبدأوا معركة التغيير؛بعد أن يقتلعوا "الايدي" التي تركها الاستعمار قبل انسحابه. قادرون على أن يبدأوا معركة التغيير، عندما يقررون استعمال ذكائهم وينمونه.. ولا يوكلون الامور للمتملقين، والمنافقين الذين يغرقونهم بعبارات المديح المقعّرة، ويتقربون اليهم بالزلفى.

إنها فرصة لها طابع التحدي..

والوقت لم يفت بعد لاستخلاص العبر من الاخطاء، فلا يكفي أن تكون الخطابات أساس الحكم، فالحكم ممارسة وعمل و "إدارة الدولة مسألة لا يستطيع الرجال أن يبلغوا في استعدادهم لها حدود المعرفة والحكمة، لأنها مسألة تتطلب التفكير الحر في أقوى العقول". وهذا يعني أنه يتوجب على الحاكم القيام بمسؤولية بناء العقول؛قبل بناء الصحراء. والعقول لاتبنى في غياب حرية الفكر. وما دامت أدوات التعبير الاعلامي ووسائل التوعية والتوجيه مجندة للثناء على الحكام ولمديحهم وحسب، فاقرأ على الامة السلام. والا "كيف نستطيع أن نخلص مجتمعاً ما، أو نحكمه اذا لم يكن حكماؤه زعماءه" ؟.

إن شراء وسائل الاعلام من صحافة واذاعات، وتلفزيونات، ورفض النقد الموضوعي، ومنعه، قد ينصّبْ حكاماً لحقب من الزمن تطول أو تقصر. لكنّ غياب حرية الرأي والتفكير، وحجب الحق في النقد والتوجيه، لا

يصنع زعيماً خالداً، بل يُفرّخ أمراضاً كثيرة، لعل أبرزها، انعدام الثقة بين الحاكم وشعبه. "فالدولة تكون ما تكون، لأن أبناءها، هم ما هم.. فلا نطمع في ترقية الدولة الا بترقية أفرادها".

* * *

ألحَرُّ ما يزال حارقاً..

واصرارك يزداد على متابعة الدرس حتى نهايته...

ولأنك تغلي في أعماقك بالغيرة على وطنك العربي المترامي من المحيط إلى الخليج.. ولأن الحُبّ يبلغ بك درجة العشق لكل ذرة تراب من أرض وطنك الكبير.. ولأنك متبتلٌ في محراب قوميتك العربية، لا يحكمك شعورٌ بإقليمية ضَيّقة، ولأنك أولاً وآخراً، انسان له طموح متجدد، تهم بالانتقال من بقعة الى بقعة في طول وطنك وعرضه.. وتشد الرّحال من صحراء الى صحراء.

ولا شيء في الصحراء الأخرى يختلف...

تنتقل من صحراء، الى صحراء، في صحراء الخليج العربي.

الانسان في تلك البقعة الصحراوية، كأخيه الانسان في هذه البقعة الصحراوية. أسلوب الحكم في موقعك الأول، هو نفسه أسلوب الحكم في موقعك الثاني.. والثالث.. والرابع، إلى آخر الارقام التي يتشكل منها عقد الدول والامارات الخليجية، التي لا تقر بقاءها مقسمة تقسيمات سياسية.. ولا تجد مبرراً يجيز لها أن تبقى مجزأة غير موحدة تحت علم واحد.

* * *

الزمان خارج حدود صحراء الخليج العربي يدور ويمضي وتنقلب صفحاته، وهنا، داخل هذه الصحراء الممتدة، لا شيء يتغير. المشاهد فوق الرمال المبسوطة على امتداد الرؤية؛ من الشمال الى الجنوب، هي، هي.. والانسان تحت لفح الهجير، هو هو...

* * *

وتسعى لجعل تجربتك التالية، أفضل من تجاربك الماضية، آخذا حذرك من الطفرة في مسلك الفضيلة. فأنت تطمح الى مثل ما طمح اليه "نيتشه" في خلق الدولة المثلى. عليك إذنْ، أن تشنّ كل يوم حرباً على نفسك، وليس لك أن تبالي بما تحققه من نصر، أو تجني عليك جهودك من اندحار فذلك من شأن الحقيقة لا من شأنك.

وتزداد متاعبك حتى لتكاد تطوقك من كافة الاتجاهات، فتغدو كالمحارب

بلا بندقية، أو كالساعي في طلب الحقيقة التي لم يعثرْ عليها ديوجين نفسه !!.

كان عليك أن لا تكتفي بأن تكون مخلصاً في قصدك، بل عليك أن تترصَّدَ إخلاصك، وتقف منه موقف المشكك فيه، فعاشق الحقيقة، إنما يحبها لنفسه مجاراة لأهوائه - كما يقول زارا - بل ويهيم بها لذاتها . لكنك غاليتَ في عشقك، فقبلت أن تمضي في تحقيق هدفك، رغم اعتراض ما ينافبه، حتى وجدتَ نفسَكَ مطوقاً بالقوى الخفية، تُضيِّق عليك لتخرجك من مسارك .

لكنكَ مضيتَ متسلحاً بإيمانك في عدالة فكرتك، واستطعت أن تنجح رغم تضافر القوى .. ضدك . وبإيمانك بأن "ليس من خصائص العادلين أن يضرّوا أحدا، وان الإضرار من خصائص المعتدين" فقد استطعت أن تخرج منتصراً للمبدأ .

وتكثر أمامك العقبات ...

وتضيق المسالك ..

والصحراء تزداد امتداداً ...

والرمال، يتسارع تحركها .. والضجيج من حولك يعلو ويصطخب، وأنتَ وحدك .

ولم يبق أمامك مناص من الانسحاب .. إنها معركتك وحدك، وتتضافر القوى متحدة كلها ضدك، ضد مبادئك .. وضد وجودك في الصحراء الممتدة امتداد الحلم .

عندئذ، يقرع الجرس مؤذناً بنهاية الدرس الطويل .. وتتوهج فكرة الانسحاب من صحراء الخليج العربي في عينيك .. ويُختَمُ جوازُ سفرك بتأشيرة الخروج .. ويُرعد السؤال في ذهنك .. تراني عائد اليك "يا شطآن السمك الميِّت والكبريت" ..

"يا كثبان الملح، ويا آبار النفط" تراني أرجع اليك، لأعيد "لهذا الرمل الغارق في الذل، اللّونَ، وذاكرةَ العيسِ، ورائحةَ الزعتر، والحنّا" .. أم أن تأشيرة الدخول اليك؛ستظل أصعب من تأشيرة الخروج ؟ ..

إن للتاريخ دورة موصولة، قد تتباطأ؛ولكنها لا تقف أبدا . واذا ما كان للصحراء في بلاد العرب رموزها، فلندع للأزمان تأويلها . على أننا نريد للصحراء أن ترمز للصفاء والمحبة والحرية، مثلما أرادها محمدﷺ بن عبد اللهﷺ عندما حمل الرسالة . وما جاء به "رسول الحرية" يجب أن لا يموت بل يجب أن يبقى على المدى .

الفصل الأول

أكِلُ عينِ النَقْرور !

« ان عرب الصحراء يؤمنون إيمانا شديداً بالفردية ، فلا يتقيدون في سهولة ، بقيود الدولة » .

مورو بيرغر
مدير قسم دراسات الشرق الادنى
في جامعة برنستون

● الى الكويت اذن ؟ .

● نعم، الى الكويت .

حملتني طائرة الخطوط الجوية الكويتية في الثالث والعشرين من كانون الثاني ١٩٦٩، من مطار بيروت في ذلك اليوم الشتائي، لتحط بي على أرض مطار الكويت بعد غيبة تزيد على الأحَدَ عشَرَ عاماً .

وخلال الرحلة، كنت مسترخيا في مقعد من مقاعد الدرجة السياحية، بمؤخرة "الترايدنت"، سادراً في أحلام اليقظة .. مسترجعاً شريط الذكريات لعمر مضى . كان الشريط يتسلسل في ذهني، وعينايَ تطلان من نافذة الطائرة على الفضاء . وكانت أحلام اليقظة تزاحم الذكريات فترتسم ابتسامة على وجهي، أحسست بها عندما انفرجت شفتاي، وتركت أنفاسي بدفئها غشاوة على زجاج النافذة الصغيرة .

حتى بين الذكريات، وأحلام اليقظة، ينشب صراع .. وليس الصراع وقفا على الانسان وحده، ولا على الحيوان !.. إنه الصراع من أجل البقاء، يدور بين فئتين من الاحياء، والغلبة في معظم الاحيان للأقوى، رغم أن المنطق يقول ان البقاء للافضل . لكن المنطق ليس له مكان في عقول بعضنا .

الفضاء أمامي رحب وسيع، والسماء مطرزة داكنة، بعضها أشد شفافية من سحب الربيع. والطائرة كعملاق يهدر، تمزق صمت الفضاء، وأنا ما أزال مسترسلا، سادرا في أحلام اليقظة، ومع شريط الذكريات.
ترتد في ذهني الصور لتتوقف عند يوم من أيام تموز من عام ١٩٥٧. أيامئذ.. كانت الطموحات عريضة عريضة.. وكانت الآمال كبيرة.. كبيرة. وعندما استقبلتني الكويت في ذلك اليوم الصيفي القائظ.. كانت فتية صغيرة.. وكان "سوار" من الطين يطوقها ويحيط بها.. والداخل الى الكويت "المدينة" يعبر من إحدى بوابات ذلك "السوار" ومن يغادرها في النهار، ولا يعود قبل الغروب قد يتوه.. ويضيع في الصحراء. كان "السور" حصن الأمان لكل من يعيش داخله.. وكانت الصحراء خارج السور، بعبعا يرعب الكبار قبل الصغار.
في تلك الحقبة من الزمن، لم تكن للكويت سفارات تمثلها في العواصم العربية.. كانت ما تزال تحت الحماية البريطانية، ورغم أنها تعتبر مستقلة، لكنها لم تكن تحوز وثيقة الاستقلال. وكان بامكان العربي الذي يحمل جواز سفر مسجل فيه اسم الكويت، أن يدخلها زائرا، أو مستهدفا الاقامة فيها، بدون تأشيرة دخول، أو اذن زيارة. كان يكتفي موظف الأمن العام أن يقرأ اسم الكويت في جواز سفر القادم، حتى يختمه بإذن الدخول، ويأذن لك بالعبور من بوابة المطار، لتبتلعك احدى بوابات سور الكويت.. عندئذ، اذا أسعدك حظك، وتوفرت لك فرصة للعمل في احدى مؤسسات الدولة، أو إحدى شركات القطاع الخاص، وضع على جواز سفرك خاتم الاقامة الدائمة ما دمت تعمل في احدى المؤسسات الرسمية أو الشركات الاهلية.
مؤسسات الدولة، لم تكن وزارات، كان اسمها دوائر: "دائرة البريد، دائرة الامن العام، دائرة الاوقاف، دائرة الخارجية الخ.." ويعتبر من السعداء والمحظوظين من يجد عملا في احداها.. أما الشركات الاهلية فمعظم أصحابها من أفراد العائلة الحاكمة "آل الصباح"، أو من كبار التجار وأصحاب الخزائن المملوءة بالروبيات الهندية. أما المثقفون، أما المتعلمون أو أنصاف المتعلمين - وكانوا أقل الفئات عددا من الكويتيين - فلم يكونوا يملكون الا الأمل والطموح، مثلهم كمثل أي عربي وافد الى الكويت.
حين قدمت الى الكويت في ذلك اليوم الصيفي القائظ، لم تكن في جيبي سوى عشر روبيات هندية.. وكان الجو مغبرّاً. وعندما تهب

عاصفة الغبار "الطوز" مصحوبة بموجة كثيفة من موجات الرطوبة التي ترسلها تبخرات المياه الدافئة من أعماق الخليج، فهذا يعني انعدام الرؤية أمامك على بعد بضعة ياردات، أو أمتار قليلة.. ويعني أيضا ضيقا في التنفس. عندما واجهتني حالة الطقس الرديئة تلك، فكرت بالعودة الى دمشق على الطائرة نفسها، ولو أنني كنت أملك تذكرة العودة لما ترددت في البقاء داخل اسوار المطار، حتى يحين موعد اقلاع أول طائرة تعود بي الى أحضان الغوطتين، حيث شذى العشب الاخضر، وغناء اوراق شجر الصفصاف الدمشقي على ضفتي بردى.. وحيث الانسام في العشيات عليلة ندية.
لكن الطموح الذي دفعني الى الكويت، وعدم امتلاكي تذكرة العودة... والروبيات العشر المتبقية في جيبي، كل ذلك جعلني أندفع الى احدى سيارات الاجرة التي يقودها ايراني، أو هندي، أو باكستاني، فأختبىء فيها من عاصفة الغبار الرملي الممزوج برطوبة مياه الخليج الدافئة، وأهتف:
- خذني الى أحد فنادق المدينة.
عشر روبيات !..
- ماذا ؟..
- أقول عشر روبيات.
- زين يابا زين.
قلتها لسائق التاكسي، وسلمته الروبيات العشر، مسلما أمري لله. وأمام مدخل عمارة لا يزيد ارتفاعها عن طابقين أو ثلاثة، توقفت السيارة، فنزلت، ونزلت معي حقيبتي.. وقرأت اليافطة. "فندق الكويت الكبير". كانت البناية في أول العمر، تبدو على مظهرها الخارجي الجدة والحداثة. أين تركني هذا السائق ؟. هل خدعهشكلي وبدلتي الجديدة فحسبني جديرا بالسكن في أحد فنادق الدرجة الاولى ؟. ولبثت برهة أحملق في اليافطة، " فندق الكويت الكبير" !.. كيف لي أن استأجر غرفة في هذا الفندق، وأنا خاوي الوفاض لا أملك في جيبي روبية واحدة ؟.. ولا أحوز سوى جواز سفري.. وهذه الحقيبةالمملوءة ببضع نسخ من مجموعتي القصصية الاولى جلبتها معي لأوزعها على مكتبات الكويت وبعض الكتب للمطالعة.. وبدلة واحدة، والقليل القليل من الملابس ؟. هل تساوي جميع محتويات الحقيبة أجرة مبيت ليلة واحدة في هذا الفندق ؟. وصاحب الفندق أو مديره، هل سيتقاضى أجرة

المبيت مقدما، أم مؤخرا ؟.
وحزمت أمري متوكلا على الله، وصعدت الدرجات القليلة التي أفضت بي الى بهو هاديء نظيف يتصدره مكتب استعلامات الفندق، ويجلس وراء حاجزه شاب يرتدي "الدشداشة" البيضاء، وعلى رأسه "الغترة والعقال". دنوت منه وحييته مقدما اليه جواز السفر. ترك الشاب من يده كتابا كان يقرأ فيه وأخذ يقلب صفحات الجواز. اغتنمت فرصة انشغاله بتقليب صفحات جواز سفري، والقيت نظرة خاطفة على كتابه. "الله.. والانسان".. انه أول كتاب يضعه الدكتور مصطفى محمود، وكان ممنوعا من التداول ؟. كيف حصل هذا الشاب على نسخة منه ؟. لابد أنه من الكويتيين المثقفين المهتمين بالفلسفات الحديثة ؟..
وتنبهت لكلمات الترحيب:
- ياحيا الله.. وياهلا بيك، هل الاخ من حلب ؟.
- نعم من حلب نفسها.. هل سبق لك أن زرتها ؟.
- أنا من دمشق.
وتم التعارف بيننا بعد أن تصافحنا. ثم قادني الى احدى الحجرات، في سقفها مروحة وتحتوي سريرين وحوضا صغيرا.
- ستنام الليلة هنا مع شاب باكستاني، وسأنقلك الى حجرة أخرى تكون فيها مستقلا عندما تخلو احدى الغرف.
رغم صعوبة النوم في غرفة مشتركة، الا أن الامر الواقع فرض نفسه فلم أبد امتعاضا.. بل شكرت الرجل وأنا أبتسم !. كنت أبتسم، وفي داخلي بوادر غليان بركانية، لكنني كتمتها مؤثراً الرضا والقبول لأنني يجب أن أقبل.
لا أدري كيف أمضيت سحابة النهار، ولكنني أفرغت حقيبتي من محتوياتها، وحرصت أن أحمل معي نسخة من مجموعتي القصصية الاولى "صدى اغنيات" التي نشرتها في حلب قبل شهور، وأقدمها الى أول مواطن من بلدي تقودني خطاي الى فندقه، ليتحول بعدئذ الى صديق حميم.
وعند المساء، دعاني محمد الصوان، صاحب فندق الكويت الكبير الى العشاء في مطعم الفندق. وحول المائدة قدمني الى شقيقيه، عبد الوهاب الصوان، وهشام الصوان، وكان معهم صديق لهم من دمشق يعمل في تجارة الجلود والامعاء، هو عدنان الصباغ. وصرنا أسرة مواطنين على مائدة واحدة.

وكانت الخطوة الاولى ..
ومضى اليوم الاول من أيامي في الكويت .
خرجت من الفندق في ضحى اليوم التالي للقيام بأول جولة في شوارع الكويت . ومن شارع المباركية الذي يقوم على أحد جانبيه مبنى الفندق، انطلقت الى "ساحة الصفاة" . ميدان رملي تتفرع منه الشوارع الاسفلتية المزروعة بالحفر، والكثير من الفجوات، أبرزها "الشارع الجديد" الذي يفضي الى شاطيء البحر حيث يقوم "قصر السيف" وهو قصر الحاكم . وشارع "الجهراء" الممتد من ساحة الصفاة الى البوابة المعروفة باسمه، على رصيفيه الرمليين تقوم المخازن، والمتاجر، والعمارات الافقية . ويتوسطه رصيف حديث التشجير . وثمة شارع يحاذي شاطيء الخليج، ويمتد من المستشفى الاميري الى أول منطقة "الشويخ" يطلق عليه اسم شارع السيف .. تتراكم على شاطئه العريض هياكل المراكب التي يصنعها الكويتيون . والمجالس الخشبية المفروشة بالحشايا، تتناثر أمام بيوت الكويتيين المواجهة لذلك الشاطيء، تعقد فيها أمسيات السمر في حلقات تضم المتجاورين من أهل "الفريج" - أي الحي - ويلتئم عليها جمع الاصدقاء في العشيات ليتحدثوا في شؤون يومهم الذي مضى، وليخططوا ليومهم المقبل . في تلك المجالس، "الديوانيات" الصيفية يطيب السهر، ويحلو الحديث مع هبات من الانسام الرخية القادمة من أبعاد الخليج، على رنين "استكانات" الشاي، وفناجين القهوة المرة .. وايقاعات "الصوت، والسامري، والحدادي" وهي من أبرز وأجمل الالحان الخليجية . والكويتي بوجه عام مغرم بأمسيات الاسترخاء في ليالي الصيف .
تلك هي الكويت كما عرفتها في أيامي الاولى من صيف عام ١٩٥٧ .. أما خارج "السور" والبوابات، فكانت ثمة مناطق تنشأ حديثا، وتعتبر من قرى وضواحي الكويت المدينة، كمنطقة "النقرة، وحولي، والسالمية" . ومضى اليوم الاول .. وتلاه الثاني .. وأعقبه الثالث، والرابع، والخامس، حتى انقضى اسبوع وأنا أقوم بجولتي اليومية من الضحى حتى موعد الغداء .. ومن الغروب الى ما بعد العشاء، وفي هذه الجولات تعرفت بالكويت، وبعدد من المواطنين الكويتيين، وبعض العرب الوافدين، وأغلبهم من الاخوة الفلسطينيين الذين أسهموا في اقامة بعض الصناعات، والمشروعات التجارية . والاخوة المصريين الذين شاركوا في الانشاءات والمقاولات العمرانية .. أو عملوا في سلك

التعليم . وكان السوريون واللبنانيون يشكلون أقل جالية بين الوافدين العرب .. على أن أكثر الجاليات عددا ، كان الايرانيون الذين يعبرون مياه الخليج الى شواطيء الكويت بأعداد كبيرة ، ويعقبهم من حيث الكثرة ، الهنود ، والباكستانيون ، وكانت لهؤلاء أفضلية الدخول الى الكويت ، لأسباب لا أعرفها ، وإن كان سببها الظاهر رخص ايديهم العاملة .

قدمت الى الكويت وفي خاطري تلتمع فكرة اصدار صحيفة أو مجلة ، بالاشتراك مع أحد المواطنين الكويتيين الذين قد تجد الفكرة هوى في نفسه . كان الكويتيون في ذلك الحين لا يتجاوز عددهم مائة وسبعين ألفا الى مائتي ألف نسمة ، وهم الكويتيون الاصليون . والغالبية العظمى منهم ، يعملون في التجارة ، أو في وظائف رسمية تابعة لدوائر (الدولة - الامارة) .. أو لدى شركات النفط العاملة في الكويت . وكان عدد المثقفين قليلا جدا بالنسبة لعدد السكان . والشعور الوطني ، والقومي يتفاعل في أعماق هؤلاء ... لكن بريطانيا بوجودها الاستعماري المتستر وراء قناع الحماية ، كانت تفرض تضييقا شديدا على الحركات الفكرية بكافة أشكالها . وصحيح أن الكويت منذ عقدت معاهدتها مع بريطانيا سنة ١٨٩٩ ، كانت "إمارة" مستقلة في شؤونها الداخلية ، يطلق عليها في العرف الدولي "محمية مستقلة" ، وتقتصر علاقاتها على وزارة الخارجية البريطانية ، ولا علاقة لها بوزارة المستعمرات ، وصحيح أن هذه المعاهدة كانت تقضي بعدم تدخل بريطانيا في شؤون الكويت الداخلية بأي شكل من الاشكال .. الا أنها كانت - بأسلوب أو بآخر - تعمل على قمع أي حركة للتحرر الفكري ، وتمحو كل صور التحرر الوطني .. ولأن الصحافة تعتبر سلاحا من أمضى الاسلحة للتوعية الوطنية ، والتثقيف الشعبي ، والاعلام الجماهيري .. فقد كانت الكويت محرومة من الصحافة الوطنية المحلية ، حتى أن الاذاعة ، كانت تقتصر برامجها على تلاوات من القرآن الكريم ، واذاعة الاحاديث الدينية ، والاجتماعية ، وبث الاغاني العربية ، وحسب . وهذا العسف الاستعماري ، جعل أمر صدور صحيفة محلية تعكس رأي المواطن ، وتبلور تطلعاته الوطنية ، وطموحه الى انتزاع الاستقلال كاملا ، مسألة شديدة الصعوبة ، ان لم يكن تحقيقها شبه مستحيل .

لكن" حكام الكويت آنئذٍ في عهد أميرها الشيخ عبد الله السالم الصباح ، كانوا يواجهون كل ما يبدر من تدخلات بريطانية في شؤون

الكويت الداخلية، مواجهة صلبة، وبإرادة قوية حازمة، حتى يشعرونها بأنهم لا يتنازلون عن هذا الحق الوطني، ذلك أن حكام الكويت على مر الزمان يعتبرون أنفسهم مستقلين عن بريطانيا في شؤونهم، ومن حقهم الشرعي أن يتصرفوا بقضايا بلادهم، تصرف الدولة المستقلة ذات السيادة، وهذا حق لهم .

الايام تمر ...

ولا تبدو بارقة أمل في الوصول الى منطلق لتحقيق الهدف في اصدار الصحيفة، أو المجلة .. وكنت كلما بادرت أحدا من الكويتيين بطرح فكرة المشروع، يقلب شفته بحركة تعبر عن استهجانه لها وازدرائه بها .

اذن ما العمل ؟..

الاسابيع تتعاقب، وأنا أعيش لهذه الفكرة التي بدا لي أنها غير قابلة للتحقيق .. وماذا بعد ؟.. حسابي في الفندق يتزايد، وجيوبي خاوية .. والحرائق الصيفية تزيد دماغي اشتعالا .. والشوق في الحنايا الى الاهل، والبلد، ورفاق الصبا، يلهبني، ويخلخل كياني .

وحتى أخمد الصراخ في أعماقي، يجب أن أعمل لأسدد ديوني أولا .. ومن ثم يخلق الله مالا أعلم .

ثورة الجزائر بلغت ذروتها في منتصف العام ١٩٥٧.. وأخبار "جميلة بوحيرد" تلهب القرائح، وتجود بأحلى المقالات عن الثورة الجزائرية .. والصحف العربية لا يشغلها سوى الحديث عن قضية فلسطين، وازكاء نار الثورة الجزائرية ...

وفي يوم، استيقظ الناس في الكويت ليستقبلوا جريدة "الشعب" التي أصدرها فجأة بعد فترة اعداد صامت، شاب مثقف يدعى خالد خلف . وكانت أول صحيفة كويتية فرح لها الناس، وطرب قلبي لمولدها، وكأنني أنا من أصدرها .. لقد تحققت الفكرة على يد شاب كويتي .. ولكن كيف لم تتسن لي معرفته ؟ . ولم أسمع باسمه من قبل، ولم يقدمني اليه أحد من معارفي ؟..

كل ذلك لم يكن له معنى .. وحده صدور الجريدة كان له أجمل معنى .. واشتريت نسختي ومضيت الى فندقي أقرأ كل سطر فيها بنهم شديد . وبعد أسبوع من صدور العدد الاول، صدر العدد الثاني، ثم تلاه ثالث .. ولما سعيت للتعرف على خالد خلف للتعاون معه، صدمني العارفون ببواطن الامور، بقولهم : إن الرجل يكتب جميع مواد الصحيفة، ويصححها، ويشرف على طباعتها، وليس بالامكان الدخول عليه للعمل

معه لا من الباب الضيق، ولا من الباب الواسع.
وكان لا بد لي من ايجاد عمل، واستطعت الحصول على وظيفة متواضعة في دائرة "البريد والبرق والتلفون"، واكتفيت من العمل في جريدة "الشعب" الاسبوعية، بقراءتها اسبوعيا، والكتابة اليها.. وكان أول مقال نشر لي فيها، عن قصيدة نزار قباني في "جميلة بوحيرد" سمعته يلقيها من اذاعة دمشق.. وكان مطلعها:

الاسم، جميلة بوحيرد،
رقم الزنزانة،
تسعونا.
في السجن الحربي بوهران،
والعمر...
اثنان وعشرونا.

وبعد بضعة أسابيع، تعطلت الجريدة عن الصدور، ولم أتعطل عن عملي في دائرة البريد والبرق والتلفون.
ولكن هل كان اقتحامي مخاطر مغادرة بلدي،وقيامي بمغامرة "الاغتراب" الى الكويت، لأعمل موظفا صغيرا في دائرة رسمية ؟!.. وهل ينتهي طموحي عند هذه الحدود الضيقة ؟.
لا، لم يكن هذا مطمحي.. وما قبلت بالوظيفة الا لأتمكن من سداد الديون. فعندما كنت في حلب، كنت أمارس العمل الذي أحب.. كنت أكتب القصص، وأعمل محررا في مجلة (السنابل) نهارا، ومساء في جريدة "الحوادث".. وأحيانا أنشر قصصي في بعض الصحف والمجلات اللبنانية.. أما هنا، في الكويت، حيث فرص الاثراء مفتوحة للجميع، فأنا مجرد موظف صغير في ادارة رسمية.. لا أجد صحيفة أعمل فيها.. ولا أحب التجارة لأثري بمزاولتها.
وشارف العام ١٩٥٧ على نهايته، وتمكنت من سداد ديوني الى الصديق محمد الصوان، صاحب فندق الكويت الكبير. وبدأت فكرة العودة الى الوطن تلح علي.
وبدخول عام ١٩٥٨، أخذ الاستقرار يعود الى سورية بعد غرقها بالفوضى السياسية، وتقويض اقتصادها بسبب سلسلة الانقلابات العسكرية.. وبرزت بوادر الاستقرار بانبثاق فكرة الوحدة بين سورية ومصر. والوحدة أمل نحلم بتحقيقه منذ نعومة الاظفار، ومذ كنا تلاميذ على مقاعد الدراسة الابتدائية.

وفي صبيحة يوم من أيام شباط - فبراير ١٩٥٨، شملت العالم العربي فرحة كبرى، هي من أعظم أفراحه في تاريخه الحديث، عندما صحا الناس على نبأ قيام الوحدة السورية - المصرية، التي وقعها الرئيسان شكري القوتلي وجمال عبد الناصر.

وخرجت الكويت عن بكرة أبيها في تظاهرة رقصت لها القلوب... شبان في "الدشاديش" البيض يحملون اليافطات، ويرفعون الاعلام السورية، والمصرية، والكويتية، يهتفون للوحدة، ويباركونها.. وينادون بسقوط الاستعمار، والمعاهدات.

ورقصتُ مع الراقصين في حلقات "العَرَضَة" الرقصة الشعبية الكويتية.. وحملت اليافطات.. وعلا صوتي بالهتاف للوحدة مع الهاتفين.. وترسخ ايماني بعروبتي وقوميتي، وأنا أرى الكويتي، والعراقي، واليمني، والاردني، والفلسطيني، وجميع العرب المقيمين في الكويت، يشاركون السوري والمصري فرحتهما الكبرى، ويهنئون أنفسهم بولادة الوحدة.

ولكم تمنيت أن أتحول الى سحابة تطير الى سماء دمشق.. وهفا قلبي الى بلادي.. وبكيت.. بكيت.

وبعد أيام، حملتني الطائرة عائدة بي الى دمشق.. كنت قد سددت ديوني.. ولكنني لم أكن أملك ثمن تذكرة العودة، فقدمها لي مواطني عدنان الصباغ تاجر الجلود والامعاء الذي تعرفت اليه في الفندق.

جئت الى الكويت ومعي عشر روبيات، وغادرتها وأنا لا أملك روبية واحدة.

* * *

حملت معي الى دمشق مرارة الفشل، والافلاس.. وبعض الذكريات والانطباعات المتنافرة، بينما سواي يعمل ويصنع المستقبل، ويجني الارباح، ويُكوِّن الثروات. ولقد كشفت لي تجربتي في الكويت حقيقة مذهلة للتناقضات التي تتكون وتترعرع داخل "السور" الطيني في الخمسينات، وكانت السمة البارزة في ذلك المجتمع الذي يتشكل من مختلف الجنسيات العربية، وغير العربية، هي سمة التعاطف والتلاحم والتآخي. الا أن وجود دخلاء على المجتمع الكويتي من الجاليات غير العربية ومعظمها من الايرانيين وغير الايرانيين ممن استوطنوا الكويت ونالوا هويتها، كانوا يقيمون بين أبناء الجاليات العربية وبين الوطنيين من الكويتيين الاصلاء، بعض السدود، ويصطنعون الفجوات، فكان طبيعيا جداً اذا ما نشب نقاش حول قضية من القضايا المشتركة بين

مواطن كويتي، ووافد عربي، كمساومة على بيع أو شراء سلعة، أو خلاف على أجر لعمل ما، أداه الوافد العربي للمواطن الكويتي، كان طبيعيا اذا ما احتدم الخلاف، أن يرشق الكويتي الوافد ببعض العبارات الجارحة، وأقلها "أجنبي"، أو "ارحل عنا الى بلادك". وكان لمثل هذه العبارات فعل مؤثر على العلاقات الاخوية الطيبة التي يفترض وجودها بين الكويتيين الأصلاء، واخوانهم من الوافدين العرب، لكن الجفاء غالبا ما كان يحل بين هؤلاء وأولئك.. فتنقلب المحبة الى حقد وكراهية، وتسود الحيطة، ويسيطر الخوف والحذر على النفوس.

فالكويتي الحق، ككل عربي أصيل الجذور، يتميز بالعفوية.. والبساطة.. والطيب.. والثقة، هي مبدأ تعامله مع الآخرين، فكانت الكلمة التي ينطقها الكويتي، هي بمثابة عهد شرف، وميثاق ملزم.. الا أن التعامل التجاري، والمالي منذ أواسط الخمسينات بدأ مرحلة تحويلية بفعل الطفرة الاقتصادية الهائلة التي عرفها الكويتيون، ولمسوا بوادر معطياتها منذ اكتشاف حقول النفط في أواسط الثلاثينات، وبدأوا يقطفون ثمار هذه الحقول بعد تدفق البترول واستغلاله تجاريا بكميات كبيرة.

هذه الطفرة، والمؤثرات الخارجية الاخرى بدأت تفرض اسلوبا جديدا في التعامل بين الكويتي من جهة، والوافد العربي من جهة ثانية، الى جانب أخطاء فردية يرتكبها بعض العرب الوافدين.

وحين "دفع اكتشاف النفط الكويت الى سمت التطور الصاعد اقتصاديا واجتماعيا، وحقق المجتمع الكويتي طفرة رائعة انتقلت به من المجتمع القبلي، ليدخل محراب الحضارة من أوسع أبوابها". بدأ الكويتي ينظر الى الوافد العربي على أنه قادم ليشاركه ثروته الطبيعية، ويقتسمها معه بدون وجه حق !. على أن العكس هو الصحيح، فالوافد العربي لم يكن يشده الى الكويت سوى عاملين أساسيين. الاول، وفرة العمل في مختلف الحقول والمجالات، بحيث يستطيع أن يحقق دخلا افضل من الذي يحققه في بلده الاصلي. والثاني، حاجة الكويت الى الانسان العربي كعنصر خبرة وكفاءة علمية لدفع عجلة التطور بتسارع الى الامام. لكن الكويتي - بسبب المؤثرات الخارجة عن نطاق تفكيره القومي - كان يشكك في نوايا كل من يفد الى بلاده من العرب، متصورا أنه لولا الثروة النفطية التي تفجرت، لما جذبت الكويت اليها أحدا.. اذن فجميع الوافدين، هم طلاب ثروات، وجميعهم يستهدفون الاقتناص

من هذه الثروة دونما حق. والعكس كان صحيحا، لأنّ العربي يُقدِّمُ من خبرته عملاً يوازي أجره، أو يزيد عليه.
ومثلما كان للنفط دور في تطور المجتمع، والحياة العامة في الكويت، فقد كان له "اثره الخطير في التاريخ السياسي لهذه المنطقة العربية التى غدت بعد تفجر ثروتها النفطية ميدانا للصراع والتنافس". وعلى الرغم من اعتراف المندوب السامي البريطاني، واحتجاجه بأنه ليس للكويت بموجب معاهدة ١٨٨٩ الحق بمنح أيّ امتياز إلى أيّ شركة غير بريطانية، فإن السلطات الكويتية أخذت تفاوض "المؤسسة الشرقية العامة" الاميركية الجنسية، لمنحها حق التنقيب عن النفط. وفي شباط - فبراير سنة ١٩٣٤، تشكلت شركة نفط الكويت المحدودة من شركة النفط البريطانية، وشركة الخليج الاميركية، بعد أن قررت الدولتان ايقاف التزاحم فيما بينهما على الامتيازات النفطية في الكويت وتقاسم الارباح مناصفة، الامر أضعف - نسبيا - من مركز الكويت في مجال الحصول على العائدات، لفقدان عنصر المساومة ما بين الاطراف المتنافسة التي غدت وحيدة الطرف في الجهة المقابلة.
ولأن الوعي الوطني، وبالتالي الوعي القومي يكاد يكون معدومابسبب عدم وجود وسائل توعية اعلامية جماهيرية، تأتي الصحافة بالدرجة الاولى.. فقد صار الكويتي نزاعاً الى "العدوانية" في تعامله الفردي مع الوافدين العرب.. وكانت تغذي هذا الشعور عند الكويتي عناصر الشر والتخريب من أجهزة مخابرات استعمارية بريطانية مستعينة بكثرة تواجد المهاجرين غير العرب على تغذية هذا الشعور، مستهدفة تمزيق أواصر الاخوة، والتفريق بين المواطنين، لتبقى السيادة الاولى للأجنبي، مطبقة بذلك سياسة "فرِّقْ تَسُدْ". وقد نجحتْ هذه الاجهزة الى مدى بعيد في خلق فجوة بين المواطن الكويتي، وأبناء الدول العربية الوافدين الى الكويت.
لكن بعد النظر عند شيوخ الكويت، جعلهم يدركون أبعاد هذا المخطط الخطير الذي يبعد الكويت تدريجيا عن دائرة الاسرة العربية، ويحول بينها وبين استكمال عناصر استقلالها التام، والانفتاح على نظم الحياة الديموقراطية التي كانت من أهداف الشيخ عبد الله السّالم الصباح.
وظل الحكام الكويتيون يعملون في اطار المطالبة العادلة بزيادة عائدات النفط حتى تحققت لهم سياسة المناصفة عام ١٩٥١، الى جانب التحول التدريجي في الارتباطات الدولية، اذ عقدت الكويت والسعودية في عام

١٩٥٨ اتفاقية مع اليابان لاستثمار النفط في المنطقة المحايدة، وأعقب ذلك خطوات أخرى، هيأت الكويت لكسر الطوق الاحتكاري تمهيدا لكسب معركة المستقبل.

* * *

جميع هذه الحقائق الموجعة حملتها معي..

ومشاهدات كثيرة انطبعت في الذاكرة عن حوادث فردية مشينة كانت تشوه العلاقة بين الكويتي وأخيه العربي.. وكان أى خلاف شخصي يقع بين كويتي وعربي، يعطى الحق فيه للكويتي. وللشيخ عبد الله المبارك - وكان المسؤول الاول عن دائرة الامن العام مواقف متطرفة - ومستهجنة في حل تلك النزاعات الفردية، أثارت قلق الكثيرين من الوافدين العرب، وخوفهم من بطشه وقسوته.. فقد كان اذا ما رفع اليه أحد الكويتيين شكواه ضد أحد أبناء الجاليات العربية، يقوم باستدعاء المدعى عليه، ودون أن يستفسر أو يحقق في القضية، يأمر بجلد هذا العاثر الحظ، وضربه بقسوة ومن ثم ترحيله عن البلاد في غضون أربع وعشرين ساعة.. هذا الاسلوب القبلي، والعشائري في النظر بقضايا النزاعات الفردية.. غذى مشاعر الالم والحقد في صدور عدد كبير من العرب الذين اضطهدوا دون وجه حق.. وقد كانت قوى المستعمر البريطاني تشجع من طرف خفي تطبيق هذا الاسلوب.

ولقد عايشت حوادث كثيرة من هذا النوع.. ولا أنسى قصة شاب لبناني من عائلة "خضر" الطرابلسية كان يعمل بائعا في "مخزن السلطان" في الشارع الجديد، اتهمه صاحب المخزن بسرقة بعض المال، فاستدعي الشاب، وطرح في زنزانة التوقيف الاحترازي بضعة أيام، ثم جلد على مرأى من العامة في ساحة الصفاة، وطرد من البلاد.. ولقد أقسم هذا الشاب بأن ينتقم من كل كويتي يأتي الى لبنان.

وما أكثر الحوادث المشابهة الكفيلة بتغذية مشاعر الكراهية، والحقد، والبغضاء، واثارة الحساسيات بين الكويتيين وبين الوافدين العرب..

* * *

واستمر شريط الذكريات يتداعى في خاطري، وتتراكم معظم صوره القاتمة أمام عيني، وأنا سادر في المقعد الوثير من مؤخرة الطائرة "الترايْدَنْتْ" التي تمزق صمت الفضاء بهدير نفاثاتها، متجهة صوب الكويت.

وترتد أفكاري الى بيروت التي فارقتها قبل سويعات الاصيل.. ثم تقفز

بي الافكار الى الكويت التي أعود اليها بعد عشرة أعوام٠٠ ويبرز في ذهني سؤال:
هل تبدل الحال ؟٠٠ وهل سأرى الكويت مثلما رأيتها في قدومي الاول ؟٠٠ هل سأجدها مسجونة بين جدران ذلك "السور" الطيني٠٠ تغلق عليها بواباتها بعد الغروب ؟٠ أم اتسعت اتساعا جاوز سورها القديم، وارتقى أهلها من دائرتهم البدوية الصحراوية، الى دائرة المدنية الحضرية ؟٠ وهل "كويت" الخمسينات زالت أمام "كويت" السبعينات ؟٠٠ أما زال الكويتي ينظر الى العربي على أنه (أجنبي) يريد انتزاع ثروته ومقاسمته اياها٠٠ أم أنه بعد الاستقلال تجاوز في وعيه القومي حدود الاقليمية الضيقة ؟٠٠ وتخلص من كافة الرواسب والحساسيات التي حاول الاستعمار بمختلف صوره وأشكاله غرسها في أعماقه ؟٠ لكن شيوخ الكويت، ورجالاتها، استطاعوا بعد وقوفهم موقفا صلبا وعنيدا سعيا لاستكمال استقلالهم، وتوطيد السيادة الوطنية لهم على بلادهم، استطاعوا انتزاع وثيقة هذا الاستقلال في عهد أميرها الشيخ عبد الله السالم الصباح حين تم في التاسع عشر من حزيران - يونيو ١٩٦١ تبادل المذكرات بينه وبين المندوب السامي البريطاني المعتمد في الخليج العربي "السير وليم لوس" بشأن انهاء معاهدة سنة ١٨٩٩، وتتويج تلك المذكرات باعتراف المملكة المتحدة بالكويت دولة مستقلة، بعدما تعاقب عليها وعلى نظيراتها من امارات الخليج العربي المحمية تحت تاج بريطانيا، عبر مئات السنين، مستعمرون تصارعوا وزحفوا على شواطىء الخليج، عتاة سفاكون، نشروا الرعب والدمار بين شعوب المنطقة الآمنة، وزرعت أقدامهم الموت منذ أن قاد "أحمد بن ماجد" ذلك البحار العربي الرائد، اسطول "فاسكو دى غاما" مساعدا اياه على اكتشاف رأس الرجاء الصالح قبل أكثر من خمسة قرون٠٠ منذ ذلك التاريخ، والزحف الاوروبي الاستعماري على الخليج العربي متصل الحلقات، متتابع الموجات، فكان البرتغاليون أول المستعمرين، وكان الانكليز آخر البغاة المعتدين٠٠٠ والصراع متواصل، والتنافس على أشده، والمزاحمات اليائسة يقوم بها الفرنسيون والروس، والعثمانيون للحصول على موطىء قدم في هذه المنطقة أو تلك،من الصحراء العربية المترامية على شطآن الخليج العربي٠
واذا كانت الكويت بانتصارها على آخر مستعمريها، حققت استقلالها ناجزاً، فهل عملت على أن تنتصر على الرواسب والمخلفات الاستعمارية

؟ • وهل استطاع حكامها، وعلى رأسهم "أبو الاستقلال" الشيخ عبد الله السالم الصباح، أن يقفزوا بالشعب الكويتي قفزة حضارية تجعلهم يلحقون بركب الشعوب التي سبقتهم الى الاستقلال ؟ •
سوف تأتي الاجابات على جميع الاسئلة المطروحة، بعد أن تهبط الطائرة في مطار الكويت، وتبدأ المعايشة الميدانية •• وسوف تكون الصورة أكثر وضوحا وأشد جلاءً منها في الكتب والنشرات والمقالات التي نطالعها عن الكويت بين حين وآخر، كلما حلت مناسبة العيد الوطني في الخامس والعشرين من شهر شباط - فبراير السنوية •

* * *

أربطوا الاحزمة وامتنعوا عن التدخين •
بعد دقائق نهبط مطار الكويت الدولي •
وبدأت الطائرة تحوم فوق الكويت تترقب اذن برج مراقبة المطار بالهبوط •
أهذه هي الكويت ؟ •
كان المساء قد حل، والغيوم الدكناء غلفت السماء، وأخفت وجه القمر •• وملت برأسي الى النافذة المطلة على الارض •• كان خط الافق موشحا بحمرة ارجوانية ملتهبة من ألسن النيران المتصاعدة من آبار النفط •• ومالت الطائرة الى جنبها الآخر •• بدا الخليج غارقا في ظلمة مدلهمة، وأنوار البواخر ومراكب الصيادين تضيء وتخبو •• ثم اعتدلت الطائرة وبدأت تنخفض تدريجيا • "أساور" من النور في استدرات متعددة على الارض، كأنها قلادات مشعة تطوق عنق حسناء كاعب •• ماهي هذه الاساور ؟ • أهذه هي الكويت ؟ •• انه لمشهد مذهل يبدو من الجو لم أر له مثيلا تحت سماء أي مدينة عربية حلّقتُ فوقها ليلاً •
ورويداً رويدا في هبوط تدريجي متزن، لمست عجلات الطائرة أرض المُدرَّج • وتهادت متباطئة حتى توقفت في موقعها المحدد •• وبدت من النوافذَ واجهة مبنى المطار، وعلى شرفته أيدي المستقبلين تلوح تحت الاضواء الكاشفة في أجمل مشهد لعناق المناديل والايدي تحت شعاع النور •
أنت الآن في الكويت مرة ثانية ••
لقد ودعت وطن الحب، لبنان ••
وجئت الى وطن العمر الآتي، الكويت •
ما الذي جعلك تنثني عن موطن الحب والجمال، لبنان وتأتي إلى موطن

المال والاعمال، الكويت ؟.
لعلك تناولت عين "النَّقْرُور" في المرة الاولى، وهي التي اعادتك الى موطن "النَّقْرُور" مرة ثانية. وفي الامثال الكويتية "من يأكل من عين سمك النقرور لابد أن يعود الى موطنه".. أو لعله قدرك الذي رصدك للكويت، وليس لك حيلة في رده !.. في كل حال، أنت الآن في الكويت فما الذي أرغمك على العودة إليها بعدما تلقيتَ درسك الاول ؟.
إنه الدرس الثاني، فترقبْ !.. ترقبْ.

الفصل الثانى

إشْتدّي أزمة ، تنفرجي

« ليستْ لديَّ حسابات شخصية ، فأنا أعرف نفسي ، وأظنني أعرف الآخرين ، واذا قررت أن أتكلم فلن يكون ما أقول به تصفية لحساب شخصي ، وانما سيكون حساب قيم أخلاقية ووطنية »
محمد حسنين هيكل
« الطريق الى رمضان »

بيروت في حزيران...
النكسة العربية التي مني بها الوطن العربي في اعقاب خوضه حربا غير متكافئة مع العدو الاسرائيلي، أفرزت "نكسات" متعددة شملت كافة الاوساط.
كان ذلك بعد صمت المدافع على الجبهات الثلاث، السورية.. الاردنية.. والمصرية في العاشر من حزيران - يونيو ١٩٦٧.
أيامئذ كنت أعمل محررا في صحيفة "الجمهورية" اليومية، وأكتب من حين لآخر مقالات أدبية في ملحق جريدة "الانوار" الاسبوعي. وقبل النكسة، كانت الصحافة اللبنانية بلغت أوج تقدمها وازدهارها. فتطورها التكنولوجي، أدى الى ازدهارها الاقتصادي، وانعكس هذا الازدهار على حياة المحررين والعمال الذين يعملون في المؤسسات الصحفية اللبنانية، ودور النشر. فارتفع مستوى الدخل، وارتفع معه مستوى المعيشة. وكان عدد من الصحفيين السوريين يعملون في مختلف الصحف البيروتية، فأصابوا نجاحا طيبا، وحققوا كسبا على الصعيدين المهني، والمادي. وكان الصحفيون اللبنانيون يفسحون المجال أمام زملائهم السوريين للعمل معهم في صحفهم ومجلاتهم، فلمعت بضع

أسماء كان أصحابها قبل مجيئهم الى بيروت يندرجون في فئة الصحفيين المغموربن •
ولما كانت النكسة الحزيرانية العسكرية قد أفرزت نكسات اقتصادية، وفكرية، واجتماعية، تركت تأثيرا بالغا على أوضاع الصحافة اللبنانية، فقد اضطر اصحاب الصحف ودور النشر الى تخفيض رواتب المحررين وأجور العمال، وتخفيض الانتاج • حتى أن بعض دور النشر البيروتية توقفت عن إصدار مطبوعاتها • وبالتالي فقد أدت هذه السياسة التقشفية الى خسارة عدد من المحررين لأعمالهم، وجلوسهم في بيوتهم، وفي مقدمتهم المحررون السوريون الذين بدأوا يبحثون عن مواقع عمل أخرى، بعد أن باتت الصحف اللبنانية التي كانوا يعملون فيها مع زملائهم اللبنانيين عاجزة عن دفع رواتبهم •
واتجهت أنظار هؤلاء صوب مناطق الخليج العربي، والمملكة العربية السعودية • فالاوضاع في تلك البلاد مستقرة•• والاعمال مزدهرة•• والصحف فيها تخطو الى الأمام لا ينقصها شيء سوى العنصر البشري من الصحفيين الأكفاء • واذا كانت مصائب قوم عند قوم فوائد، فان النكسة التي خلفتها حرب الايام الستة، وتركت آثارها على الاقتصاد اللبناني الذي أثر تأثيرا مباشرا بصحافتها، هذه النكسة لم تؤثر في متانة اقتصاد دول الخليج، لكونها ليست من دول المواجهة أولا، ولوفرة المال الذي يجعل مؤسساتها قادرة على تجاوز أي محنة قد تعترضها • وكانت المحنة التي تواجه صحف الكويت ، النقص في العنصر البشري وحسب، فجاءت انعكاسات حرب حزيران لتحل للصحافة الكويتية محنتها •
وبدأ نزوح الصحفيين عن بيروت•• حتى أن عددا من الصحفيين اللبنانيين أغرتهم العروض الخليجية، فتركوا مواقع عملهم في صحفهم ومجلاتهم المعرضة للانهيار الاقتصادي، والتحقوا بصحف ومجلات دول الخليج العربي، وفي مقدمتها الكويت •
وعلى مدى عامين، من منتصف عام ١٩٦٧ الى منتصف ١٩٦٩، خلت بعض الصحف البيروتية من خبرة محرريها السوريين واللبنانيين، بعد أن اضطروا للعمل في صحف كويتية • كمال طعمة الذي كان سكرتيرا لتحرير مجلة "الأحد" الصادرة في بيروت عن دار الكفاح، التحق بدار الرأي العام ليتسلم سكرتيرا لتحرير مجلة "النهضة" الوشيكة الصدور، الياس مسوح، توقف عن الكتابة في "ملحق" النهار البيروتية ليطير الى الكويت ويتسلم عمله مديرا لتحرير "ملحق" الرأي العام • قاسم

أفيوني التحق بجريدة السياسة. أنطون أبي يونس ترك "الديلي ستار" الصادرة عن دار الحياة في بيروت، ليعمل في "الديلي نيوز" الكويتية. عبد الله الشيتي، الى مجلة "أضواء الكويت" وكان في بيروت ممثلا ديبلوماسيا لعمان، عندما كانت "امامة". عدنان مراد، أنشط محرر فني لعدد من المجلات اللبنانية الفنية، طار الى الكويت.. وعدد آخر توزع بين مختلف صحف المملكة العربية السعودية، والكويت.
لبثت في موقعي بجريدة "الجمهورية" بعد أن خسرت عملي في مجلة "الحسناء" التي كان يملكها نبيل خوري، لأنه باعها الى أصحاب جريدة "النهار" بسبب تراكم الديون عليه، وطار الى السعودية. كما توقفت عن الكتابة في ملحق "الانوار" الاسبوعي.. و"الشبكة" التي لم أعمل فيها أكثر من شهر واحد.. وانخفض دخلي الى أقل من ربع الدخل الذي كنت أحققه قبل النكسة الحزيرانية، ولم يبق لي سوى ما أتقاضاه من جريدة "الجمهورية" التي كان رئيس تحريرها، هنري سجيع الاسمر، يحرص على الاحتفاظ بجميع العناصر من أسرة التحرير العاملين معه، رغم ضآلة موارد الصحيفة وضيق رقعة انتشارها.
وازدادت ضغوط الحياة على من بقي في بيروت، وأنا واحد منهم، إذ كان ما أحققه من دخل شهري يزيد على ألفي ليرة لبنانية قبل النكسة، فانخفض الى حوالي مائتي ليرة. وبدأت أقوم باتصالات مع مكتب الاعلام التابع لسفارة المملكة العربية السعودية في بيروت، وكان يديره الدكتور شكيب الجابري، علني أجد فرصة للعمل في احدى صحف المملكة. وكان يتردد على المكتب بعض المسؤولين في وزارة الاعلام السعودية، وبعض رؤساء التحرير لعدد من صحف المملكة. واستبشرت خيرا بلقاء تم بيني وبين غالب أبو الفرج، رئيس دائرة المطبوعات والنشر، إثر وعد منه باستدعائي وطلبي للعمل في الرياض بعد عودته اليها.. ومرت أسابيع دون أن يتحقق الوعد.. ثم التقيت بعد فترة بأحد رؤساء التحرير السعوديين، وكان يقوم بزيارة الى بيروت، أعتقد أنه عبد الرحمن المعمر، وأيضا تم الاتفاق بيننا مبدئيا لأعمل معه.. وعاد الرجل الى بلاده، ونسي الوعد والاتفاق.
الاسابيع تمر.. والشهور تتوالى.. والازمة تشتد، والحياة تزداد ضيقاً.. والفرص تتضاءل حتى تكاد تتلاشى.
ويحل شهر رمضان المبارك.
اشتدي أزمة تنفرجي !..

وألتقي مصادفة في يوم من أيام رمضان برجل عرفته يوما ما في احدى المناسبات، هو واجد دوماني، وكان يشغل منصب نائب، أو مساعد الملحق الصحافي، في سفارة الكويت ببيروت٠٠ وأحيي الرجل بابتسامة وأنا أعبر طريقي الى البيت الذي أسكنه في نهاية "شارع الحمراء"، فيستوقفني، ويدعوني للجلوس معه على ناصية مقهى "ستراند" في وسط شارع الحمراء٠ ويبتدرني قائلا :

■ قرأت لك قبل أيام قصيدة في ملحق "الانوار" وقد أعجبتني٠٠ فهل تعمل في الملحق ؟٠٠

كان الوقت قبيل الغروب، ومدفع الافطار يوشك ان ينطلق، ولم تكن بي رغبة في الحديث، اجبته :

■ لا أعمل بشكل منتظم، ولكنني أكتب من حين لآخر٠٠ استأذنك ياصديقي٠

لكنه أمسك بيدي، فلبثت جالسا.

● اذن فأنت لا تعمل الآن ؟٠ هل تسافر الى الكويت ؟٠ قال واجد دوماني، وأخذ يرمقني منتظراً جوابي٠

هذا عرض مثل بقية العروض غير قابل للتنفيذ، وبدون أن أدرك مأقول أجبت:

- أسافر الى جهنم !! أو أي مكان آخر٠

دهش الرجل، ورفع حاجبيه الكثيفين، ثم قال:

● يبدو لي أنك في ضيق شديد باصديقي٠٠ لا بأس، سوف يصل بعد بضعة أيام الى بيروت عميد دار الرأي العام الكويتية عبد العزيز المساعيد، وسوف أرتب لك معه موعدا، لأنه قادم للبحث عن محررين، واسمك سأضعه في أول القائمة٠

شكرت للرجل وعده ومضيت، ولدي احساس بأن الوعد لن يتحقق، وخاصة في الكويت، وفي دار الرأي العام، ومع عبد العزيز المساعيد بالذات، لأن للرجل مع الصحافة اللبنانية قصة طويلة٠٠ ومع جريدة "الجمهورية" بالذات التي أعمل فيها٠ فهو عندما يعرف بأنني أعمل في "الجمهورية" سوف يستبعدني، إن لم يرفضني رفضاً فظاً، لأن بعض الصحف اللبنانية، ومنها "الجمهورية" شنت عليه حملة من الهجوم الشديد متهمة اياه بالضلوع، أو تحريض كمال طعمة الذي يعمل سكرتيرا لتحرير مجلة "النهضة" على قتل زوجته٠ وكان عبد العزيز المساعيد، قد دفع ثقله بصفته نائبا في مجلس الامة الكويتي، ومالكاً لمؤسسة صحفية

لها ثقل قوى، لانقاذ رقبة كمال طعمة من حبل الاعدام بعد صدور الحكم عليه بتهمة قتل زوجته. وقد تبنت صحيفة "الجمهورية" التي أعمل فيها، جانبا من هذه الحملة، فكيف له أن يقبل بي للعمل معه ؟.

ومرت أيام من رمضان...

مرت ثقيلة شديدة الوطأة..

وحلت ليلة القدر..

وفى تلك الليلة اعتكفت في غرفتي استمع الى الابتهالات في احتفال دينى تنقله اذاعة دمشق، وأنا ممدد على سريري مصلوب العينين بالنافذة المطلة على السماء.. وقلبي ووجداني متصلان بالله.. وبين غفواتى القصيرة، صحوت على صوت الباب بقرع، ولما فتحته قابلت وجه صديقى "عصام محفوظ" الشاعر والمسرحي، الذي اعتدت منه مثل هذه الزيارات الليلية. دعوته للدخول، لكنه لم يدخل.. ظل واقفا بالباب وهو يقول لي.. صاحبك عبد الله الشيتي يسأل عنك، انه يريدك للعمل معه فى الكويت.. اذهب اليه غدا، ستجده في فندق ستراند.. ومضى.

ليلتئذ لم أنم جيدا..

انها ليلة القدر.. "ليلة القدر خير من ألف شهر، تنزل الملائكة والروح فيها باذن ربهم من كل امر، سلام هي حتى مطلع الفجر".

لقد سمعت السماء وجيب القلب والوجدان، واستجابت لتضرع الزوجة الصابرة، وتوجعات الصغيرين.

وصدق واجد دوماني وعده، وأشار على عبد الله الشيتي الذي تسلم مكان كمال طعمة في مجلة "النهضة" بعد حكمه مؤبدا. أشار عليه ليتصل بي وليتفق معي على العمل.

كان عبد الله الشيتي قد وصل الى بيروت ليجري اتصالاته بحثا عن محررين ليقدمهم الى صاحب دار الرأي العام عندما يأتي بعد بضعة أيام للاتفاق مع من يقع عليه الاختيار. ولأن العرض الذي يحمله لم يشجع أحدا بالسفر الى الكويت، لم يجد سواي أمامه عندما التقينا ظهر اليوم التالى، واجتمعنا بحضور واجد دوماني. وقدم الشيتي لي العرض قائلا.. سوف تعطى راتبا في حدود المائة دينار، وتعويضا للسكن في حدود خمسة وعشرين دينارا في الشهر. من هذا المبدأ يمكنك صياغة مواد العقد، مع الأخذ في الاعتبار، عدم العمل مع أي جهة اعلامية أخرى.

وسألت:

■ وماذا عن تذاكر السفر ؟، وهل يغطي هذا المبلغ جميع نفقات المعيشة في الكويت ؟، صحيح أنني في حاجة الى العمل، ولكنني لا أريد أن أقع تحت وطأة الديون وأعبائها الثقيلة، وأنا أعلم أن مستوى المعيشة مرتفع في الكويت.

وقال الشيتي:

■ ليس للدرجة التي تتصورها. فهذا الراتب، هو أعلى راتب بعد رواتب مدراء وسكرتيري التحرير، أما تذاكر السفر، فلا ضرورة لذكرها في العقد، لأن من البديهيات أن تقدمها الدار لمن يعمل في صحفها. وأنا أعدك بعد بضعة أشهر من العمل معنا، أن يجري تعديل على الراتب.

لم يكن العرض مغريا، لكن الظروف كانت تفرض القبول به.. ولقد صغت مواد العقد على هذه الاسس، وأضفت اليه مادة تشترط التعهد بتقديم تذاكر السفر، حتى لا أتعرض مستقبلا للأخذ والرد حولها، وبعد أن طبعت صيغة العقد على الآلة الكاتبة، اجتمعت بعبد الله الشيتي بحضور واجد دوماني لمناقشته، قبل تقديمه الى عميد دار الرأي العام للتوقيع. وحين قرأ الشيتي المادة المتعلقة بتذاكر السفر والتي تقول: "مادة رابعة: يتعهد الفريق الأول بتأمين السفر جوا من بيروت الى الكويت للفريق الثاني وعائلته المؤلفة من زوجة وولدين، وبالعودة من الكويت الى بيروت في نهاية مدة العقد".. اعترض الشيتي عليها قائلا، ان هذه المادة قد لا تشجع العميد على التوقيع. فأجبته:

- إن من يقبل بالعمل في الكويت في مناخ قاس، وفي بيئة اجتماعية مختلفة عن بيئته، يطمح الى توفير بعض المال.. وليس في العرض ما يشجع على السفر.. ولولا الظروف التي تمر بها صحافة لبنان، لما قبلت بهذا العرض.. فان لي تجربة سابقة مع الكويتيين، انهم دقيقون في مصالحهم، ولا ينفذون ما لا يرد ذكره في العقود التي يبرمونها مع الآخرين.. فالكويتي قد ينفق المئات والألوف على حياته الخاصة.. ولكنه لا يدفع قرشا واحدا لا يرد ذكره في عقد العمل.. والكويتي - الآن - ليس الكويتي في السابق. اننا نقرأ قصصا كثيرة عن الخلافات التي تقع بين أرباب العمل الكويتيين وبين من يعمل معهم، والطفرة المادية الهائلة التي أغرقت بعض هؤلاء جعلت التعامل معهم أشد قسوة من التعامل مع.. الحديد. لذلك فأنا لن أتنازل عن هذا الشرط.

- إنك تخرِّفُ بما لا تعرفه، وأنا أنصحك بحذف هذه المادة ان كنت بحاجة للعمل، وتريد السفر بسرعة.
- إنَّ تجربتي تجعلني أعرف أكثر مما تعرفه، هذا اذا لم تكن عارفاً، ولكنك تتجاهل.
وتدخل واجد دوماني:
● انه شأنه، اترك له حق التصرف يا عبد الله.
وقلت للاثنين:
- أنا بحاجة ماسة الى هذا العمل، ولكنني سأرفضه في حال عدم موافقة العميد على المادة المتعلقة بتذاكر السفر!.. فأنا أدرك معنى تسجيلها في العقد.
وانفض مجلسنا، وانصرف كل في سبيله.
لم ينقض أسبوع حين أبلغني واجد دوماني أن "العميد" قد وصل الى بيروت، وعلي أن أقابله غدا في فندق "بوريفاج" حيث يقيم، فقد حدد لي موعدا معه اليوم.
كنت أتلهف الى التعرف بالعميد "المساعيد" لكثرة ما سمعت به، وكنت في شوق للقائه.
وفي صبحة اليوم التالي توجهت الى "البوريفاج" والتقيت لأول مرة بعميد دار الرأي العام الكويتية التي نصدر عنها صحيفتان يومبتان هما "الرأي العام" عربية. "الدبلي نيوز" انكليزية..ومجلة (النهضة) الاسبوعية، ومجلة "سعد" للأطفال، وملحق اسبوعي ثقافي نظير ملحق "النهار" البيروتية.
وبعد أن قدمت نفسي اليه، انتحى بي ركنا من صالون الفندق، وابتدرني بالسؤال:
■ ها.. وين تشتغل هالحين ؟. (أين تعمل الآن) في ملامح الرجل صرامة وقسوة، ولشخصيته حضور، قسمات وجهه عربية، تعابيره نقيه، صافية، وواضحة.
■ في جريدة "الجمهورية" !. اجبته باقتضاب.
من طبيعتي ان أكون صادقا في بناء علاقاتي مع الآخرين، فلم أفكر باخفاء الحقيقة، ولتكن النتائج ما تكون.
ابتسم الرجل ابتسامة باهته لم تغير من القسوة في ملامحه وقال:
■ ها.. زين.. زين، ذولا أصحابنا (يقصد هؤلاء اصحابنا) غامزاً !!.
وفهمت ما يعنيه.. انه يلمح الى الحملة التي شاركت "الجمهورية"

بشنها عليه عندما كانت قضية كمال طعمة أمام القضاء الكويتي الذي أصدر حكمه عليه بالسجن المؤبد.
ولم أعلق على تلميحاته فتابع:
■ زين، الأخ واجد برشحك للعمل معنا في النهضة، وحنا نعطيك امية دينار.. ايش تقول ؟. يعني نحن ندفع لك مائة دينار.
■ اذا كنت ترى ياعميد أن المبلغ يغطى نفقات المعيشة بمستواها المرتفع في الكويت، فأنا موافق.
■ بغطي.. يغطي، سوي العقد، وجيب جوازك، وتعالى باشر علشان نعمل لك فيزا. (تعال غدا لكي نستخرج لك تأشيرة السفر).
وكان نص العقد في جيبي، فقدمته اليه، أخذ يقرأ بنوده بتمهل، وبعد فروغه طلب قلما.. ووقع دون أن يبدي اعتراضا على ما ورد فيه من مواد. وأعاد الي نسختي واحتفظ بنسخته، ثم قدمت اليه جواز السفر.. تناوله مني وقال:
■ رح خذه من عند الأخ واحد دوماني باشر.. بس شوف، نبيك - نريدك - بسرعة، ترى "ما تصيف وايد" يعني لا تتأخر في الحضور.
ووعدته بالحضور في غضون أيام. ثم سألته متردداً :
- اذا أمكن إعطائي سلفة مقدماً لتسديد بعض النفقات الواجبة قبل مغادرتي بيروت - لكنه زوى ما بين حاجبيه وقال: ندفع لك سلفة في الكويت عندما نصل.

* * *

بعد يومين، ذهبت الى سفارة الكويت، قابلت واجد دوماني، فسلمني جواز السفر، مصحوبا بكتاب الى مكتب الخطوط الجوية الكويتية لصرف تذكرة السفر. ولما أعلمت عبد الله الشيتي بالامر، بدا الاستغراب عليه وقال:
"والله انك لمحظوظ يا فاروق.. ان العميد صاحب مزاج، وكان يمكن أن لا يوقع العقد بسبب شرط التذاكر".
وأجبته وفي نفسي ضيق شديد:
- انه صاحب مزاج فعلا، ولكنه صاحب مصلحة أيضا.. أنا في حاجة الى العمل، ولكنه في حاجة ملحة الى عنصر نشيط.
على كل حال.. ان لم يرق لي الوضع، أعدك بأن لا أجدد العقد سنة ثانية.
- لا.. لا.. سوف يعجبك الحال، وأعدك باجراء تعديل على الراتب قبل

انتهاء السنة الاولى.
وانصرفت لاعداد نفسي للسفر..
وفى غضون أيام ودعت الاصدقاء، وأبرقت الى الكويت محددا موعد قدومي، وصفيت بيتي في بيروت، وحزمت حقائبي، وتوجهت الى المطار لتحملني الطائرة مرة ثانية الى الكويت، ولأستلم من عميد دار الرأي العام، مفتاح العبور الى صحراء الخليج العربي.
وبدأ الدرس الثاني !؟..

الفصل الثالث

وجهان .. لصورة واحدة !

« إنّ دوران الحياة في مكة واتساع تجارتها قد زاد من غنى السادة والقى بمعظم السكان بين أظفار الحرمان والخوف . حتى لقد سئمت القلوب مما تعاني وأدرك الناس أن هذا كله باطل »

عبد الرحمن الشرقاوي

من كتاب « محمد رسول الحرية »

نزلت من الطائرة بعدما عرض لنا "الكابتن" صورة جميلة جدا للكويت من الجو.

كان المساء في أوله، والهواء يحمل برودة مقبولة.رفعت عينيّ إلى شرفة المستقبلين.. لم أتبين وجها أعرفه بين الوجوه. وقدمت جواز سفري الى المسؤول.. قلب الصفحات، ونظر في وجهي، ثم ختمه وأعاده الي، فتقدمت عابراً البوابة الى صالة فسيحة تتجمع فيها الحقائب.(كم تضايقني العيون المدققة والمتفحصة كأنها تتهمني بالتهريب أو الجاسوسية).

شغلت بتأمل الوجوه حتى وصلت الحقائب.. اقتربت أبحث عن حقائبي.. الذين يرتدون "الدشداشة والغترة والعقال" كان مسؤولو الجمارك يؤشرون على حقائبهم وصناديقهم، فيحملونها ويمضون. والذين يرتدون البدلات والبنطلونات، كان يطلب اليهم فتح حقائبهم لتفتيشها دون استثناء.

الصورة الجميلة للكويت من الجو، لها وجه آخر على الارض.. انها أول ملامح التمييز بين الكويتي وغير الكويتي تطبق أمامي في أول موقع رسمي للدولة، مع أنني أعرف مدى تأثير هذه التفرقة في التمييز بين

الكويتي وغير الكويتي، فإنني عندما رأيت حقائبي، فتحتها دون أن يُطَلَبَ مني، لأنني لا أتعاطى التهريب، أو أحمل الممنوعات وفي مقدمتها المشروبات الكحولية التي حرمها القانون الكويتي. رغم ان حقائب المسافرين الكويتيين تمتلىء بالزجاجات، ورغم علمي من خلال القراءات في الكتب التي صدرت عن الكويت، ومن خلال ما تكتبه الصحف والمجلات، أن نظام الحكم في الكويت لم يتطور، والادارات لم يصبها تطور في فترة حكم الشيخ أحمد الجابر التي امتدت من عام ١٩٢١ حتى بداية عام ١٩٥٠، بل بقي رتيباً "تسوده المركزية وقلة التنظيم" لأنه كان "يحكم البلاد حكما فرديا مباشرا في جميع الشؤون". وأن الامور ظلت على ما هي عليه حتى بداية "عهد الشيخ عبد الله السالم الصباح، الذي تولى الحكم في عام ١٩٥٠، وعاصرت بداية عهده الاصلاحات الادارية في جهاز الحكم". ورغم معرفتي التامة،بأن الكويت بعد أن حقق لها "أبو الاستقلال" الشيخ عبد الله السالم الصباح السيادة التامة "في جميع أمورها الداخلية والخارجية" انصرف تفكير رجالاتها "نحو وضع دستور ديموقراطي للحكم، وذلك بعد اقراره من قبل مجلس تأسيسي منتخب من قبل الشعب يبين نظام الحكم على أساس المبادىء الديموقراطية المستوحاة من واقع الكويت وأهدافها". وقد صدرت أحكام هذا الدستور في عام ١٩٦٢ ويتضمن ١٨٣ مادة موزعة على خمسة أبواب، ونصت احدى مواده على:

■ المساواة والحرية الشخصية، العدالة الاجتماعية.

■ وأن هذا الدستور في المادة التاسعة والعشرين من الباب الثالث المتعلق بالحقوق والواجبات العامة، تقول بالنص الحرفي :

"الناس سواسية في الكرامة الانسانية، وهم متساوون لدى القانون في الحقوق والواجبات العامة، لا تمييز بينهم في ذلك بسبب الجنس أو الاصل أو اللغة أو الدين".

رغم علمي، ومعرفتي بهذا كله ، فقد فتحت حقائبي وانتظرت مسؤول الجمارك أتأمله، وهو يقلب محتوياتها وكأنه ينبش في قبور، لا يراعي حرمة لمساواة، ولا لكرامة انسانية، مع أن الدستور مقدس ويجب تطبيقه على الجميع.

ولو أنه استثنائي - للاشتباه بي لا سمح الله - لقبلت الامر برحابة.. لكنه أعفى الكويتيين من التفتيش - عفا الله عنه - ولم يعف غيرهم، والمادة (٢٩) أكدت لهذا المواطن الكويتي أن "لا تمييز أمام القانون

بسبب الجنس، أو الأصل، أو اللغة، أو الدين" • فابتسمت بمرارة، لأنني، من جنسه، ومن أصله، وأتكلم لغته، وأدين بدينه•• ولكنه ميزني وفرقنى لأنني أرتدي بنطلونا ولا أرتدي "دشداشة" • ويا له من وجه آخر للصورة، يبز في عتمته الوجه المضيء الجميل للصورة التي رأيت الكويت عليها من الحو !••
انه مظهر من مظاهر انعدام الثقة بين الكويتي وغير الكويتي •
انتهت عملية نبش القبور – الحقائب • أغلقتها وكدت أعجز عن حملها الى الباب الخارجي، لكنني حين لمحت الزميلين، عبد الله الشيتي وموفق بنى المرجة ينتظرانني، هرولت اليهما، ونسيت كل شيء في لحظات العناق والتهنئة بالوصول •
وجهان•• لصورة واحدة•••
هذه هى بداية الدرس الثاني •
واحتوتنا سيارة أحد الزميلين لتنقلنا من المطار الى الفندق •
فى ضحى اليوم التالي، صحبني الزميل عبد الله الشيتي معه الى مبنى "دار الرأى العام" ليقدمني الى المدير العام، والى رئيس التحرير والى جميع الزملاء العاملين في صحف الدار التي يدل مظهرها الخارجي، وهي منتصبة بشموخ في بقعة بارزة من شارع الصحافة على طريق الشويخ المؤدي الى المطار، وتدل محتوياتها من آلات طباعية حديثة، على أنها مفخرة من مفاخر الاعلام في الكويت، وقلعة عظيمة ترسم، او تشارك فى رسم ملامح الحضارة العصرية في الدولة الجديدة، التي لم يمض من عمر استقلالها سوى ثماني سنوات، فما هو الأسلوب الذي يرتكز عليه فى رسم هذه الحضارة ؟•
(مهما يكن من امر، فمن الواضح ان دولة الكويت قد ركزت من خلال دستورها، على المنطلقات التاريخية، والعقيدية، من خلال ترابط عروبة الوطن، واسلامية الدولة في وحدة متفاعلة بمحيطها الطبيعي، ومرتكزاتها الموضوعية، وحدة منفتحة على الحياة والتقدم الحضاري والتطور الاجتماعي، بشكل تتأكد معه اصالة التجربة الكويتية، واشراع الابواب على آفاق المدنية الانسانية) • فهل حققت الكويت عمليا هذه النظرية ؟•
إن الثروة التي وفرها النفط للكويت منذ اكتشافه في اواسط الثلاثينات، هيأ لها فرص الازدهار الاقتصادي، فهل استغلت الكويت هذه الثروة الوطنية استغلالاً إيجابياً في مصلحة التنمية الانسانية تنمية حضارية

بعيدة عن مظاهر الترف، والتبديد، والرخاء السطحي ؟٠
٠إن اقطار الخليج المصدرة للنفط، غدا بوسعها ان تستغل ثرواتها المتزايدة لتدعم استقلالها ، وحريتها في ادارة شؤونها الداخلية، ولتضع سكانها على طريق التقدم الحضاري بعد قرن من التخلف)٠ ولنلاحظ جملة – لتضع سكانها على طريق التقدم الحضاري – ونتساءل ماذا تعنيه في مضمونها العلمي ؟٠
انها تعنى قبل كل شيء " المساواة، والحرية، والعدالة الاجتماعية " التي نص عليها دستور الكويت٠٠ فهل كان التطبيق متساويا مع النص وموازيا له ؟٠
إن الجواب لا يأتي من رؤية زاوية واحدة من زوايا الصورة٠٠ لأن " الكتاب لا يفهم من عنوانه "٠ الجواب تعطيه المعايشة الميدانية، والتجربة الذاتية٠ فالكتب، تطرح نظريات يجب الأخذ بها٠٠ اما الدروس التطبيقية بالتفاعل مع المجتمع، فتعطينا ثمار التلاحم بين النظرية والتطبيق٠
وما نزال في بداية الدرس الثاني ؟٠
المعايشة الاولى لشكل "التمييز والتفرقة " بين الكويتي وغير الكويتي في عملية تفتيش الحقائب، هو مظهر من مظاهر التخلف والجهل عند الانسان الفرد٠
ونهوض مؤسسة اعلامية فكرية كمبنى الرأي العام الصحفية، هو شكل من اشكال الحضارة التي يصنعها الانسان٠
لكن المثلين المتناقضين، لا يجسدان الحقيقة، ولا يبلوران بوضوح الابعاد الحضارية، او التخلفية التي يقوم عليها المجتمع٠
هذه التأملات والأفكار تزاحمت في رأسي، والسيارة تجوب الشوارع العريضة المشجرة في طريقها الى دار الرأي العام، ومشاهد العمارات الشامخة، والساحات التي تتوسطها نوافير المياه، تنطبع في العينين بهاء وجمالا، وتتكدس في تلافيف الدماغ " مظاهر " تقدم، صنعتها اموال النفط، ونفذتها يد الانسان العربي الوافد الى الكويت٠
وتوقفت بنا السيارة، وعبرنا بوابة الدار الشامخة٠٠ وتم التعارف مع المدير العام فهد المساعيد، ومع رئيس التحرير، يوسف المساعيد٠٠ وللوهلة الاولى، بدا لي الرجلان على قدر من الود والالفة، وبدأت افكر بما يتطلب مني القيام به قبل الشروع بالخطوة الاولى على طريق العمل الميداني٠

تناولت مجموعة من أعداد مجلة " النهضة " ومجموعة اخرى من أعداد جريدة " الرأى العام " وحملتها معي الى غرفتي·· وصرفت بعض نهارى، ومعظم ساعات الليل في مطالعتها، لتكوين فكرة خلفية سريعة ومكثفة عن نوعية الموضوعات التي تنشر فيهما، ونوعية القضايا المحلية التي تتم معالجتها بأقلام العاملين في دار الرأي العام·

باب " خطوات على الطريق " يكتبه رئيس التحرير يوسف المساعيد ويتعرض فيه بالنقد المر، لأوضاع كافة الوزارات والدوائر، والمؤسسات الرسمية·· ويتناول بسخرية لاذعة، كبار المسؤولين في الدولة من مستوى وكيل وزارة مساعد الى وزير·· وما وصلت اليه حالة البلد من خلخلة، وهلهلة، وترد على مختلف الميادين والأصعدة· الأمن فالت والأمان مفقود - وهذه من مسؤليات ورارة الداخلية - ويتولاها الشيخ فهد العبد الله السالم الصباح· المناهج التعليمية فاسدة وبالية، ومتعفنة·· والمدارس تخرج اميين، وبدلا من ان تملأ العقول بالعلوم والثقافات، تفرغها من محتواها، وتعلم التلاميذ التواكل، والتكاسل، والأسترخاء، والخمول !··

وهذه الوزارة (وزارة التربية والتعليم) بتولاها جاسم داوود المرزوق، وهو ينتمى الى اسرة كويتية عريقة·

السياسة الخارجية لا تنبع من الداخل، ولا تعكس مواقف الكويت التي تفرضها المصلحة الوطنية والقومية·· وبعض العواصم تشترك في رسم سياسة الكويت الخارجية· ويتولى ادارة هذه الوزارة المهمة، الشيخ صباح الأحمد الجابر الصباح·

الحدائق قذرة ومهملة، الشوارع مليئة بالحفر·· الأتربة والفضلات تسد الطرقات·· وهذه مسؤولية وزارة الأشغال العامة، ويتولاها حمود النصف، وينتمي الى احدى الأسر الكويتية العريقة·

انقطاع التيار الكهربائي·· تشابك الخطوط التلفونية·· تهريب الخمور·· المتاجرة بتأشيرات الدخول الى الكويت·· الضغط والازدحام على دائرة الجوازات للحصول على الاقامات·· رخص قيادة السيارات·· سيارات بلا أرقام·· وسائقون بلا رخص·· حوادث الاصطدامات اليومية المروعة·

عصابات خطف الأولاد·· الغلاء·· الأرتفاع المتزايد بأسعار المواد الغذائية، المتاجرة بالأعراض، وقوت الناس·· انحدار الأخلاق·· سرقات، نهب متاجر ومنازل·· احتكار·· ربا·· فسق·· تدهور·

انحطاط المستوى البرامجي في التلفزيون والاذاعة٠٠ الحاجة الى مسارح ومكتبات، كرة القدم٠٠ ملاعب٠٠ شباب مايع٠٠ شعور طويلة٠٠ تدهور٠٠ تدنٍّ٠٠ إنحطاط المستشفيات أقذر من الكاراجات ! الخ !٠
تلك هى صورة الكويت كما يعكسها قلم يوسف المساعيد في زاويته الاسبوعية " خطوات على الطريق " في مجلة النهضة٠
وفى بقية صفحات المجلة، تمتدح الأقلام الأخرى، التقدم، والحضارة والعدالة الاجتماعية، ويشيد الكتاب بالمسؤولين والقيمين٠٠ وكبار الشخصيات ! فهل هذه هي الكويت الحقيقة والواقع ؟٠
شتاء وصيف على سطح واحد !٠
وجهان متناقضان لصورة واحدة !٠
هل هذا وجه من وجوه الحرية ؟٠
ولون من ألوان الديموقراطية ؟٠
ام انها الفوضى تشمل كافة القطاعات ؟٠
وهل الحرية ان نقول ما نشاء دون ضابط، او رادع، او شعور بالمسؤولية، وان يكتب الصحافي ما يشاء ؟٠
هل تكون ديموقراطية الحكم في اتخاذ القرارات الفردية وتنفيذها دون استشفاف نتائجها قبل حدوثها٠٠ وما تخلفه هذه النتائج من مضاعفات سلبية ؟٠
وهل الديموقراطية في ابداء الرأي تعطي المرء الحق في ان يقول ما يريد من النقد والتوجيه للجهة المسؤولة٠٠وتبقى هذه الجهة المسؤولة خرساء٠٠ طرشاء٠٠ تفعل ما تشاء، ولا تنتبه لمخاطر تقصيرها، ومخاطر النقد الموجه اليها ؟٠
صحيح أن "الخبر مقدس والرأى حر"٠٠ وصحيح أن اتخاذ القرارات حق للمسؤول، وأن الرأي والمناقشة حق أيضا لمن يقدر عليهما، ولكن الصحيح أيضا أن يكون القول منسجما مع الفعل٠
وهناك دائما مسافة بين القرار والرأي٠
"الرأى حق كل انسان٠٠ أما القرار فواجب ثقيل يحمله هؤلاء الذين وضعت فيهم الشعوب ثقتها، خصوصا اذا كانوا يتحركون ومن حولهم اجهزة مسؤولة تضع أمامهم أدق المعلومات، وتطرح أمامهم كل المحتمل من البدائل والخيارات"٠ فهل أصحاب القرارات يحملون عبء مسؤولية الثقة ؟٠
يجب أن نفصل دائما بين السلوك العام والسلوك الخاص٠ فالسلوك

العام، أن تؤدي دورك وواجبك نحو وطنك - حاكما أم محكوما - من منطلق فهمك لمسؤوليتك الموكولة اليك، أو المناطة بك دون التأثر الا بالدستور والقوانين المرعية. والسلوك الخاص، أن يكون لك الحق أن تمارس حياتك الخاصة بمختلف نوازعك وميولك النفسية، والروحية، والجسدية ضمن اطار محدد لا يتخطى حدود دائرتك الى دائرة الآخرين.
بعبارة أشد تكثيفا، وأدق تعبيرا.. تطبيق مبدأ "تنتهي حرية المرء، عندما تبدأ حرية الآخرين" و "رحم الله امرءا عرف حده فوقف عنده". هذه مبادئ، وضعناها نحن، وصدرناها.. فطبقها الآخرون وأهملناها نحن الذين اخترعناها.
وثمة نظريات تفلسف الديموقراطية لاتنتهي سلسلتها. وفي تحليل لمعنى الديموقراطية في جمهورية أفلاطون كما يرى فؤاد صروف. "قد تتصارع الديموقراطية وتندثر بكثرة ديموقراطيتنا. مبدأ الديموقراطية الاساسي، تساوي كل الناس في حق المنصب وتعيين الخطة السياسية العامة". وعند "نيتشة" في هكذا تكلم زرادشت "اننا أبناء هذا الشرق الذى انبثق الحق فيه انصبابا من الداخل بالالهام لا تلمسا من الخارج، فلنا المسلك المفتوح منفرجا أمامنا للاعتلاء والخروج الى النور بعد هذا الليل الطويل، اذا نحن أخذنا بروح ما أوحاه الحق الينا". فهل تستوحي الكويت خططها من هذه المنطلقات ؟.
الدستور الكويتي، أشار الى حقوق المواطنة في نطاق الممارسة الديموقراطية انطلاقا من أن "الحرية الشخصية مكفولة". وهذه نقطة لا يمكن تجاوزها.. لأن الدستور الكويتي انما هو امتداد لدساتير الديموقراطيات العريقة.. وعندما يؤكد الدستور على حماية الحرية الشخصية، فانما يعني أن الكويت "تبني تجربتها الفذة" ليس "عبر المنطلقات العربية الواعية عن حق، والاسلامية المتسامحة عن صدق"، وانما استشف هذا الدستور آفاق المستقبل، وأراد للكويت أن تنطلق بوعي ابنائها لبلوغ هدف التمييز بين السلوك العام، والسلوك الخاص.
اذن، فان الدستور واضح، وصريح..
لكن الممارسات التطبيقية لروحه، خاطئة، ومغلوطة.. والدليل، ان كل "قيس" يغني على "ليلاه"..أجهزة الدولة تعمل كيفما تشاء.. والفرد ينتقد كما يريد.. والنتيجة لا احد يفهم على أحد، أو لا يعبأ بأن يفهم أولا يفهم.
البلاد تتكدس وتختنق بالعمارات، والسيارات.. فتستهلك، ويعاد

تكدبسها وهكذا دواليك • ويبقى الانسان هو، هو، كما كان قبل النفط••
لا تمتد اليه يد العناية، فبنادي بالحضارة ولا يجد امامه ووراءه وعن جنبه، سوى حضارة التجارة•"ولبس بترقيةالتجارة والزراعة والصناعة، ولا بجعل البلاد جنة ثراء وتنظيما•• تنشأ الامة، ويخلق الشعب الحر السعيد"•

فالانسان، سوف يدرك في النهاية "أن دوران الحياة في مكة، واتساع تجارتها قد زاد من غنى السادة، والقى بمعظم السكان بين أظفار الحرمان والخوف، حتى لقد سئمت القلوب مما تعاني"•• سوف يدرك الانسان أن هذا كله باطل، وهذا يعني شيئا واحدا هو:

إن "السلوك العام مفقود•

وإن "السلوك الخاص مغلوط•

فما هي الحقيقة ؟•• وأين الحقيقة ؟• ومن المصيب، ومن يكون المخطيء ؟•

الجواب يأتي بعد الدخول في التجربة••

والدرس الثاني ما يزال في البداية•

العدل، الحرية، والمساواة

ثلاثة مداميك أساسية تحدد طبيعة السلوك العام•

والدستور الكويتي نص عليها، وشدد على تطبيقها في المادة السابعة منه• ومفهوم "السلوك العام" في المعايشات اليومية لشؤون الحياة، عند الشعوب التي تخضع لأنظمة ديموقراطية مطبقة تطبيقا فعليا يتلخص في أن:

يملأ الموظف في أجهزة الدولة وقته الوظيفي بالعمل الفعلي، والانتاج المثمر، لانجاز مصالح المواطنين والرعايا دون ابطاء، ضمن نطاق القانون الوظيفي، والتشريعات الادارية واللوائح الموضوعة، مثلما يفعل تماما التاجر في متجره، والصانع في مصنعه، والسائق وراء مقود سيارته، والمفكر أو الفنان في عالمه الانتاجي والابداعي، والفلاح، أو الزارع في حقله• أما مفهوم "السلوك الخاص" في حياة كل فرد من هؤلاء الافراد الذين يتشكل منهم المجتمع، فيتلخص في أن:

يمارس كل انسان حياته الفردية بحرية مطلقة، ويلونها بما تهواه ذاته الانسانية، مع الأخذ - بوعي وفهم كاملين - بعين الاعتبار عدم تجاوزه في ممارساته الفردية، حقوق الفرد الآخر، أو الانتقاص منها في مختلف الظروف•

فهل ما نص عليه الدستور الكويتي روحا، تعكسه الاعمال تطبيقا ؟ وتجسده الافعال الفردية ؟.

"اذا كانت الكويت دولة حديثة، بكل ما تعني هذه الكلمة من أبعاد .، بوجهها التاريخي، والحضاري الجديد، وبخاصة بعد استكمال استقلالها عام ١٩٦١، وبروزها كدولة متمتعة بسيادتها الوطنية التامة في اطار جامعة الدول العربية، ومنظمة الأمم المتحدة، تعرف كيف تمثل دورها الايجابي عربيا ودوليا معا"، فان بروزها الحديث هذا لا يجوز أن يصرف الفرد فيها مهما كان موقعه عن فهم دوره، والقيام به من خلال مسلكيه (العام والخاص) للمضي في تصحيح الصورة المأخوذة لوجه وطنه، وردها الى ملامحها الحقيقية، ليضعها في اطارها التاريخي التليد، والوصول بالتجربة الديموقراطية التي أراد الحكم في الكويت أن يقوم عليها، كمرتكز للتطور، والأخذ بالفكرة القومية كعقيدة، للخروج من العزلة الاقليمية، وبالتالي للشفاء من النزعة الفردية التي يتصف بها الانسان الصحراوي غير المتحضر، الذي "تسيطر عليه الاحساسيس القبلية" والعقلية البدوية التي تفرض عليه شعورا بالانتماء الى عالم لا يتعدى حدود مضارب قبيلته.

اذن من التجربة الميدانية، ومعايشة الواقع يجب أن نبدأ.. ولتكن البداية من أكثر المواقع أهمية وحساسية.

وقبل كل شيء، لنبدأ بمناقشة "الديموقراطية الكويتية" بين النظرية والتطبيق.



الفصل الرابع

البحث عن هوية

« ان مجتمعاً مصاباً بهذه الظواهر ، لهو مجتمع مريض ، عرضة لأن تتفشى فيه الفوضى . ولأن يصبح مسرحاً للحقد والكراهية والتفرقة بين أبنائه .. ولأن تنتشر فيه روح اللامبالاة ، وانعدام الشعور بالمسؤولية فيتفسخ .. وليس بعد التفسخ ، إلا الانهيار ! » .

جابر الاحمد الصباح
ولي عهد الكويت

كثيرة هي الدول التي تختار "الديموقراطية" دستورا وقانونا لشعوبها، لكنها تقع فريسة للازدواجية بين اختيارها النظري، وبين تطبيقها العملي. وأكثر الشعوب التي تذهب ضحية هذه الازدواجية، هي شعوب الدول النامية، وللتخفيف نقول، هي شعوب العالم الثالث حديثة العهد بالاستقلال. فالديموقراطية كما هو متعارف على مفهومها هي "أولا وأخيرا، سلوك ساحة التجربة العملية والممارسة الفعلية". أما الدستور، فهو "صمام الامان النظري لصحة الممارسة، وسلامة التطبيق، والبعد عن الانحرافات". والكويت، واحدة من دول العالم الثالث رغم حداثة استقلالها - ١٩٦١ - اختارت النظام الديموقراطي أساسا للحكم. وكان هذا الاختيار - على محاذيره ومخاطره - بداية التجربة الفذة لدولة خليجية ترتمي صحراؤها على صدر المياه الدافئة، هي في واقعها امتداد جغرافي واجتماعي طبيعي وعضوي لشبة الجزيرة العربية التي تعتبر المملكة العربية السعودية ابنتها الكبرى، ولبادية الشام وهي الامتداد الجغرافي الطبيعي لها.

واذا ما تناولنا الديموقراطية - نظرياً وتطبيقاً - تحت الراية الكويتية "وجدناها كالجوهر الفرد، وحدة لا سبيل لتحطيمها، في بعد كلي عن

الازدواجية بين المفهوم الدستوري والتنفيذ الواقعي، بل ان الشكل السليم يغطي المحتوى القويم، في انسجام وتناغم متنامين متكاملين، يتجليان بتعاون السلطات فيما بينها من جهة، وتوحد ارادة الشعب وممثليه والقائمين على السلطة من جهة ثانية" • فالى أي مدى يصح هذا الرأى؟• والى أي بعد يؤكد حقيقة التناغم بين السلطة والشعب؟• وهل هى "ديموقراطية اقليمية تستهدف حدود الكويت، وتشمل شعب الكويت ومن يعيش تحت سمائها، أم أنها "ديموقراطية" قومية تتوخى الوطن العربي، وتسعى للامتداد والشمولية حتى تغطي كافة الكيانات الاقليمية للوطن العربي الكبير من الماء الى الماء؟• أي من حدوده المترامية على شواطيء المحيط الاطلسي والبحر الابيض المتوسط، الى شواطىء البحر الاحمر والخليج العربي؟•

في كلمة صغيرة قدم بها "أبو الاستقلال" الشيخ عبد الله السالم الصباح، الدستور، جاء الجواب على السؤال:

"نحن عبد الله السالم الصباح أمير دولة الكويت••

رغبة في استكمال أسباب الحكم الديموقراطي لوطننا العزيز•

وايمانا بدور هذا الوطن في ركب القومية العربية وخدمة السلام العالمي والحضارة الانسانية•

وسعيا نحو مستقبل أفضل ينعم فيه الوطن بمزيد من الرفاهية والمكانة الدولية، ويفيء على المواطنين مزيدا كذلك من الحرية السياسية، والمساواة، والعدالة الاجتماعية، ويرسي دعائم ما جبلت عليه النفس العربية من اعتزاز بكرامة الفرد، وحرص على صالح المجموع، وشورى الحكم مع الحفاظ على وحدة الوطن واستقراره" الى آخر الكلمة•••

صدقنا على هذا الدستور وأصدرناه:

وتأتي المادة السابعة والاربعون لتحدد أن "الدفاع عن الوطن واجب مقدس، وأداء الخدمة العسكرية شرف للمواطنين، ينظمه القانون"•

فهل نفسر جملة "الخدمة العسكرية شرف للمواطنين" على أنها تشمل كل عربي يحق له الانخراط في الجندية؟؟•

اذا كانت المادة الدستورية عَنَتْ التفسير الاول، فإن التنفيذ مغاير للتطبيق• لأن القوات المسلحة الكويتية تضم أفرادا من جنسيات عربية عديدة•• ففيها الفلسطيني، والاردني، والعراقي، وبعض السوريين والمصريين• ولا نجيز ذكر الاسماء والرتب العسكرية التى يتولونها• كما أن القوات المسلحة الكويتية تضم في غالبية قطعاتها، أفراداً ولدوا في

الكويت، ودرسوا في مدارسها، وترعرعوا في ظل علمها، ولكنهم لا يحملون اي جنسية، كويتية او غير كويتية، لأنهم محسوبون من قبائل البدو الذين وفدوا الى الكويت من الصحراء.. واستوطنوها.
أما أذا أردنا التفسير الثاني.. فان ذلك يكون أكثر انسجاما مع روح المرسوم الذي صدق به الامير الراحل الشيخ عبد الله السالم الصباح، الدستور وأصدره حين قال:
"وايماناً بدور هذا المواطن في ركب القومية العربية، وخدمة السلام العالمي والحضارة الانسانية". كما أن التفسير الثاني - اذا ما أخذنا به - يأتي منسجما مع نص المادة (١٥٩) التي تقرر "الدولة وحدها هي التي تنشىء القوات المسلحة وهيئات الامن العام وفقا للقانون". وقد يعني هذا أن للدولة وفق القانون الحق في قبول العرب.. وهذا ما هو واقع فعلا في الجيش الكويتي. وكثيرا ما طولب بضرورة منح الافراد العاملين في القوات المسلحة الجنسية الكويتية. وكثيرا ما عالج عميد دار الرأى العام في زاوية "في الصميم"، اليومية هذه القضية وطالب بايجاد حل جذري لها. الى جانب الحاح كتاب كويتيين آخرين ومطالبتهم بضرورة تجنيس افراد الجيش والشرطة. إذ كيف يمكن لمن يخدم علم الكويت في القوات المسلحة، أن يكون كامل الولاء لهذا الوطن، وهو لا يحمل هويته؟. ومع ذلك، فالقضية لم تجد حلا نهائيا وعادلا.
وما هو حاصل في قطعات القوات المسلحة "جيش، شرطة، وأجهزة أمن عسكرية" ينسحب على بعض القطاعات الاخرى. بل ان في جميع القطاعات الرسمية من وزارات وادارات، الى جانب القطاعات الخاصة، كالشركات، والمصانع، والمؤسسات نجد نسبة من يشغلون وظائفها من العرب، أعلى من الكويتيين.
ففي وزارة التربية والتعليم معظم الاداريين من الدول العربية كما أن المعلمين والمدرسين، ابتداء من المرحلة الابتدائية حتى نهاية المرحلة الجامعية الغالبية العظمى منهم، عرب.
في وزارة الصحة، بكل اقسامها الادارية، وعياداتها، والمستوصفات المنتشرة في مختلف أنحاء الكويت ومناطقها، وفي المستشفيات خمسة وثمانون في المائة - تقريبا - من الاداريين، والاطباء - على مختلف تخصصاتهم - وجهاز التمريض والتوليد والقبالة من العرب. أما نسبة الخمس عشرة في المائة المتبقية، فتتوزع وظائفها بين الكويتيين، وحملة الجنسيات الأخرى كالهنود والباكستانيين والايرانيين.

وفي أجهزة الاعلام (اذاعة، تلفزيون، وصحافة) يملاء العنصر العربي فراغها، ويشغل أهم المراكز وأدقها • وخاصة الصحافة بقطاعيها العام والخاص• فأجهزة التحرير والاجهزة الفنية والعمالية يشغلها عرب، فتجد مقابل كل /١٠/ محررين عربا، كويتيا واحدا • وفي الاقسام الفنية لاتجد كويتيين (مخرجون صحفيون، خطاطون، ورسامون) • أما في بقية الوزارات والادارات الأخرى، فتقل نسبة العرب فيها عن ما يقارب ال ٨٥٪، وترتفع نسبة الكويتيين أكثر من ٤٠٪ • وليس في ذلك مأخذ على الكويت • لأن الدولة في حاجة الى العنصر البشري من أصحاب الكفاءات والخبرة العرب، وخاصة في بداية المرحلة الاستقلالية • ولكن المأخذعلى سياسة الرواتب والاجور•
واذا كان الدستور الكويتي، قد جسد "تطور المباديءالدستورية الحديثة حين أكد على الحقوق الاقتصادية والاجتماعية" • كما نص هذا الدستور "على الحقوق والواجبات العامة التي تربط بين نظام الحكم والافراد" •
اذا كان الدستور الكويتي قد نص على ذلك نظريا، فان التمييز في الرواتب والأجور ظل قائما بين الكويتي وغير الكويتي، فما معنى المساواة في الواجبات، دون المساواة في الحقوق ؟•
هنا يبرز المأخذ على الكويت في تطبيق مواد الدستور• وهنا تملاء الحيرة الرؤوس•• فالدستور ثمرة نهج الديموقراطية، لكن تطبيق الدستور يأتي منافيا لقواعد الديموقراطية من هذه الناحية• ولقد تردد أن منظمة العمل الدولية، قد وضعت الكويت على "اللائحة السوداء" لهذه التفرقة بين الكويتي وغير الكويتي التي تطبقها في لوائح الرواتب والاجور• وعندما تناهى الي الخبر، طرحته في اجتماع مع عميد دار الرأى العام، كان رده أن هذا الموضوع ليس من شأني التطرق اليه، أو الكتابة عنه !• طبعا، عندما سمعت هذه الاجابة المبتورة، ارتسمت أمامي الف علامة استفهام وتعجب • ولما حاولت مناقشة رئيس التحرير في هذا الموضوع، صعقتني ابتسامته وهو يقول "ما يقرره العميد•• لا يناقش"!•
لو أردنا أن نسوق الامثلة، ونضرب الشواهد، لبدت لنا الصورة مذهلة، ويكفي القول، ان وزارة التربية مثلا عندما تتعاقد مثلا مع مدرس ثانوي، يحمل اجازة الليسانس، وشهادة أهلية التعليم، وخبرة لا تقل عن خمس سنوات في مجال التدريس، تعطيه نصف الراتب الذي يتقاضاه المدرس الكويتي المتخرج لتوه من احدى كليات جامعة الكويت، وليس

لديه أي خبرة في مجال التعليم. هذا مثل مما يحدث في قطاعات الدولة.
أما القطاع الخاص.. فالامر يختلف، مزاجية رب العمل، هي التي تقرر ما يجب أن يأخذه الموظف.
وأضرب مثلا شخصيا:
حين تعاقدت لأعمل في دار الرأي العام كان الراتب المقرر مائة دينار وخمسة وعشرين مع بدل السكن. . وعندما تسلمت عملي، اتضح لي أن الزميل الذي كان يشغل ذات العمل الذي حللت مكانه فيه، كان يتقاضى مائتين وخمسين ديناراً شهريا، اضافة الى أربعين ديناراً بدل سكن.
وأكثر من هذا. جيء الي بشاب كويتي لأقوم بتدريبه على الاعمال التحريرية، وصدر قرار تعيينه براتب شهري مقطوع قدره خمسون ديناراً في الشهر - غير متفرغ - لأنه يعمل في احدى الوزارات، وبعد مرور عام، بقي راتبي على مستواه، وارتفع راتبه الى الضعف. واذا رغبت في الاحتجاج أو الصراخ.. فان الجدران تحيط بك من كافة الجوانب، ولك حرية كاملة في أن (تنطح) الجدار الذي يعجبك، أو أن تترك العمل وترحل !.
تلك صورة من صور المزاجية، ونموذج من نماذج المسلك العام الذي يتعارض مع أبسط قواعد المنطق، العقل، والديموقراطية.
نضرب مثلا آخر..
معدو ومؤلفو البرامج والتمثيليات الاذاعية والتلفزيونية من المقيمين العرب في الكويت يتقاضون أقل من نصف ما يدفع للكويتي. الا اذا كان هذا المؤلف العربي ضيفا على الكويت، فإنه يعطى مكافأة استثنائية.
ولكي يصل هذا المؤلف الى حقه كاملا، كان يتنازل عن حقه الادبي، بأن يذاع برنامجه باسم كويتي، فيتقاضى الاجر او المكافأة المقررة للكويتي.
وتجسيدا "للمزاجية" الفردية فقد ترتكب أخطاء جسيمة، وتهضم حقوق كثيرة للعربي الذي يعمل في القطاع الخاص، بلا ذنب ولا جريرة.. سوى أن ظروفه ومقاديره قادته للعمل في الكويت. هذه "المزاجية" تتجلى في قطاع الصحافة عامة.. وفي دار الرأى العام بوجه خاص.
كيف ؟..
سيد "المزاجية" في دار الرأى العام، عميدها. فهو قد يغدق الهدايا المادية والمعنوية على أحد العاملين في مؤسسته، لخفة دمه، وظله..

أو لشكله دون الأخذ في الاعتبار مستواه المهني، أو حجم عطائه في العمل. وقد يصدر أمره بالاستغناء عن خدمات أي عنصر - مهما كان وجوده ضروريا - اذا ما كان هذا العنصر ممن (يحملون السلم بالعرض). أي أنه يكون شديد الغيرة على عمله، ولكنه لا يتقن القاء النكته.. أو أن العميد يستثقل ظله وحضوره، يكفي أن يقول للمدير الاداري (فنّشْ فلان) حتى يغدو (فلان) في اليوم التالي بلا عمل، وقد يحرم أيضا من تعويضاته، هذا اذا لم يلغ له اقامته القانونية في الكويت حتى لا يترك له فرصة ايجاد عمل في موقع آخر.

ومدير عام القلعة الاعلامية في الكويت فهد المساعيد، واحد من أبرز "المزاجيين" ليس في دار الرأي العام وحسب، بل في الكويت.

وأول صدام لي معه بسبب - مزاجيته - كان بعد مرور أقل من شهرين على عملي في مجلة "النهضة" عندما تقدمت بطلب تذاكر السفر لأسرتي، فجاءني جوابه بالرفض!. ولكن عقدي ينص على هذا الحق؟.. الجواب، ما عندنا تذاكر.. خذ تذاكرك من العقد!.. هكذا.. بسخرية. وذهبت الى مستشار الدار القانوني استفتي رأيه، فكان رده أن رفع حاجبيه وقال:

■ ماذا أفعل من أجلك اذا كان المدير العام لا يريد ان يصرف لك حقك في التذاكر؟..

وذهبت الى زميلي وصديقي عبد الله الشيتي ورويت له الحادثة، بعدما ذكرته بما أشار علي به في بيروت حول مسألة ذكر مادة متعلقة بتذاكر السفر في العقد، فقال لي:

دعه الى أن "يروق" مزاجه؟.

وماذا أفعل بأسرتي اذا لم يرق مزاجه الذي قد لا يروق حتى نهايةالعقد؟

■ ضحك عبد الله وأجاب بهدوء:

عندئذ تأخذ أنت تذكرة عودة وترجع الى أسرتك.

واستبد بي الغضب للموقف المتهاون.. ولأن من طبيعتي الغضب والانفعال حيال ما أراه مجافيا للمنطق، ومنافيا للحق، فقد قررت أن آخذ تذاكر السفر في اليوم نفسه، أو أقدم استقالتي وأرحل.

وعندما جاء العميد مساء، ذهبت اليه في مكتبه، ودار بيننا الحوار التالي:

■ مساء الخير يا عميد.

■ ها.. ايش عندك؟.

■ أريد تذاكر سفر لأجلب عائلتي.
■ ليش عقدك يقول انك تستحق تذاكر سفر لعائلتك.
■ نعم يا عميد.
■ زين.. هالحين نصرفها لك.
ورفع سماعة التلفون، وأصدرأمره الى المدير الاداريليصرف التذاكر.
ولقد أنصفني العميد في حقي.. وكان مزاجه رائقاً! لكن المدير العام فهد المساعيد، لم يرق له أن آخذ حقي عن طريق والده، فظل مزاجه معكرا حتى نهاية مدة عقدي.. وربما الى اليوم ؟!.
وصرفت لي التذاكر.. وواصلت العمل.
أما يوسف المساعيد، رئيس التحرير، وهو النجل الأكبر لعميد دار الرأي العام، فكان يختلف.. لم يكن على هذه الدرجة الحادة من المزاجية.. فهو صحافي جيد، وكاتب يحسب لكتاباته الحساب.. ويعالج الامور بالعقل والمنطق..ولكن، كان الاختلاف في وجهات النظر قائما بشكل متواصل بينه من جهة، وبين والده وشقيقه فهد من جهة أخرى. فهو يريد أن ينظم العمل في صحف الدار على أسس ومفاهيم يحددها النظام والقانون، وأصول العمل الصحافي.. لكن الآخرين لا يوافقانه في آرائه.. ومن هنا، كان الخلاف يحتدم بين أفراد الاسرة الواحدة في الدار الواحدة. وتنعكس نتائج الخلافات على بعض العاملين في صحف دار الرأي العام.
هذه نماذج وأمثلة قليلة جدا، من الممارسات الفردية التي تعكس صورة للمسلك العام في بعض المؤسسات الخاصة والعامة. أما على النطاق الأعرض، فان أخطاء السلوك العام له انعكاسات أشد خطورة.
لقد أخذت الدولة على عاتقها العناية بالصحة العامة لكافة المقيمين في الكويت من مواطنين ووافدين، ولم تحرم زوار الكويت أيضا من هذه العناية والرعاية والخدمة الصحية المجانية. ودولة الكويت بفضل ثروتها النفطية تنفق الاموال الطائلة من أجل "التغلب على العديد من المشكلات الصحية المستعصية، التي يرتبط بعضها الى حد كبير بطبيعة الاحوال المناخية القاسية وأوضاع البيئة الصعبة". ونترك جانبا احصاء المؤسسات الصحية التي انشئت في الكويت منذ عام ١٩١١، لنكتفي باستعراض ما استطاعت أن تحققه هذه الدولة الناشئة على صعيد الخدمات الصحية منذ بداية العهد الاستقلالي، على ضوء تقرير وضعته بعثتان نظمهما البنك الدولي للانشاء والتعمير بطلب من الحكومة

الكويتيةعام ١٩٦١٠ وجاء في هذا التقرير أن جميع الكويتيين وجميع المقيمين في الكويت يسجلون أسماءهم في "مستوصفات تقدم لهم خدمات طبية، كتلك التي يقدمها طبيب العائلة في البلدان الاخرى، - بريطانيا مثلا - كل وافد إليها حتى لو كان سائحا ليوم واحد، تقدم له الخدمات الصحية مجاناً٠ وتحفظ لكل واحد منهم ملفات خاصة٠ وتقدم المستوصفات المجتمعة - وتجمع كل ثلاثة مستوصفات أو أربعة في مجمع واحد - الخدمات الطبية الطارئة خلال أربع وعشرين ساعة، وكذلك تقدم بعض الخدمات الصحية الخاصة كمعالجة الاسنان٠

وجميع الخدمات الطبية مجانية للمقيمين في الكويت وللزائرين٠ وكل من يتقدم بطلب للعناية من الناحية الصحية، يحصل على الخدمات الطبية اللازمة له٠ وتضاهي الخدمات الطبية في الكويت تلك الموجودة في البلدان المتقدمة٠ ولكن هذا لا ينفي وجود بعض المشكلات في ميدان الطب الوقائي وفي الادارة العامة للخدمات الصحية"٠ ويكاد يكون جميع ما حواه هذا التقرير متطابقا مع الواقع لولا سوء التصرف في المسلك العام٠

فوزارة الصحة العامة الكويتية تنفق من الاموال ثمنا للادوية، والمعدات الطبية، وصيانة المنشآت عدا الرواتب والاجور وغيرها من النفقات أرقاما خيالية٠ ومع هذا كله تظل مستشفيات الكويت ومستوصفاتها لا تتمتع بالحد الادنى من المواصفات الصحية٠٠ كما أن الوزارة تتكبدأموالا كبيرة لارسال المرضى - والمتمارضين أحيانا - مع مرافقيهم، الى بعض البلدان الاوروبية - بريطانيا - خاصة٠ وهؤلاء عددهم بالمئات٠ والطريف في الامر٠٠ أن معظم هؤلاء المرضى أوالمتمارضين لا يسافرون الا مع بداية موسم الصيف٠ أي أنهم يمضون الاجازات الصيفية على حساب وزارة الصحة العامة الكويت، في بريطانيا، أو في سواها من بلدان أوروبا الغربية٠ أما المرضى الحقيقيون وبعضهم ممن يعانون من أمراض وعلل يصعب معالجتها وشفاؤها في الكويت، فانهم لا يتلقون الا الحد الادنى من الاهتمام٠ وليس الخطأ في ذلك يقع على المراجع المسؤولة في وزارة الصحة، بل على "السلوك العام" من قبل العاملين في المجمعات الصحية كالمستوصفات والمستشفيات، أطباء أو أجهزة فنية أو تمريضية٠ ذلك أن معظم هؤلاء موظفون يتقاضون رواتب من الدولة، ويؤدون أعمالهم بدون رقابة ذاتية من ضمائرهم٠ يكفيهم أنهم يتواجدون على رأس أعمالهم ضمن ساعات الدوام الرسمية

يمارسون أعمالهم بروح آلية روتينية ٠
ومن التجارب الذاتية التي تكشف هذه الحقيقة، مررت بتجربتين، الاولى عام ١٩٥٧ عندما أصبت بعد وجبة غداء بمغص شديد في أسفل البطن، ونقلت الى المستشفى الاميري٠٠ وبعد كشف عاجل قرر الطبيب المعالج أنني مصاب بالتهاب الزائدة الدودية٠٠ وادخلت بعد اجراء الترتيبات المبدئية الى غرفة العمليات٠ وبعدها صحوت من المخدر، أفقت لأجد نفسي غير قادر على الحراك فوق السرير، ناديت الممرضة، واستفسرتها عن الامر، فقالت ببرود:
الحمد لله على السلامة٠٠ لقد أجريت لك عملية استئصال الزائدة، وكانت سليمة – تقصد الزائدة سليمة – وليس فيها أي أثر للالتهاب !!٠ بسيطة، لقد كنت حقلا للتجربة لطبيب متمرن٠ أما الثانية فكانت في أواسط ١٩٧٤، عندما تعرضت لمغص مماثل، نقلت على أثره الى مستوصف السالمية٠٠ ولكي – يتخلص – مني الطبيب بسرعة، زرقني بابرة مسكن للألم من نوع "نوفالجين"٠ وبعدما أعدت الى بيتي بوقت قصير، زال مفعول الزرقة، وعاودني الالم من جديد٠٠ ولحسن الحظ، قدم لزيارتي الزميل وليد غزال وكان رئيسا لقسم الاعلان في دار الرأي العام فوجدني على الحالة التي أعاني فيها من الالم، اضافة الى المضاعفات التي تركت آثارها "زرقة النوفالجين" على وجهي وجسمي، اذ سببت لي انتفاخات٠٠ ولم يلبث أن حملني الى سيارته، ونقلني الى مستشفى الصباح، وبعد اجراء التحاليل المخبرية اتضح أن لدي ترسبات رملية، وتضيقا في الحالب، فأجريت لي عملية جراحية لاستئصال القسم المتضيق من الحالب٠
فى التجربة الاولى مكثت حوالي الشهر في المستشفى بسبب اساءة الجراح عملية رتق الجرح فأصبت بالتهابات شديدة٠٠ مع العلم أن عملية استئصال الزائدة تعتبر من اسهل العمليات الجراحية، ولا يمكث من تجرى له في المستشفى أكثر من أسبوع٠
أما في التجربة الثانية فقد مكثت ما يقرب من شهرين، وكانت فضيحة عندما تولى رئيس التحرير يوسف المساعيد الكتابة في زاوية "خطوات على الطريق" منتقدا الاهمال، والارتجال في المعالجة الذي كاد يودي بحياتي بسبب حقنة النوفالجين، ولقد جرى تحقيق في وزارة الصحة٠٠ لم يؤد بالطبع الى نتيجة٠
أما حادثة الزميل انطوان ابي يونس مدير تحرير صحيفة "الديلي نيوز"

فقد كانت الاولى والاخيرة، لأنّها أودتْ بحياته بعد دخوله الى المستشفى بأقل من اسبوع. فقد نقل الزميل على عجل الى المستشفى الاميري بعد شعوره بضيق شديد في التنفس.. وظن الاطباء، أنه مصاب "بالربو".. وبعد أيام فارق الحياة وهو دون الاربعين..اذ كان ضيق تنفسه ناتجا عن أزمة قلبية !!.. فأعيد جثمانه الى لبنان، ويوم اخراج جثته من ثلاجة المستشفى ونقلها في نعش الى المطار، رافقته مظاهرة من جميع الصحفيين العاملين في دار الرأي العام، وفي غيرها من الصحف الكويتية، وتقدم المظاهرة يوسف المساعيد، رئيس تحرير النهضة. ولم تكن المظاهرة وداعا للزميل، بقدر ما كانت تعبيرا من الصحافة عن احتجاجها على ما تدنت اليه الحالة في مرافق الصحة العامة.

أحداث وحوادث تكاد سلسلتها لا تنتهي ؟...

وجميعها لا ذنب للديموقراطية، أو الدستور بها.. بل ذنب السلوك العام الذي لا يفصل بينه وبين السلوك الخاص. والخطأ، في عدم وجود خطة مدروسة لتنمية الانسان قبل أن يتسلم واجبه ومسؤولياته..

وجهان لصورة واحدة...

ولطالما تكرر هذان الوجهان في جميع القطاعات الاخرى.

ففي المادة "التاسعة والعشرون" ، من الدستور الكويتي "الناس سواسية في الكرامة الانسانية، وهم متساوون لدى القانون في الحقوق والواجبات العامة، لا تمييز بينهم في ذلك بسبب الجنس، او الاصل أو اللغة أو الدين". انها صورة نقية،ومن أرقى ما توصل الانسان اليه على صعيد التنظير.. أخذته الكويت دستورا.

أما التطبيق...

التطبيق شيء مختلف جدا عن التنظيم.. ولا يمكن لاهداف الدستور أن تتحقق اذا لم"تخترع" خطة لتنميةالانسان لتبلغ الكويت في حضارتها الانسانية، ما بلغته أعرق الديموقراطيات في العالم، بدون بترول.

وانه لحلم، لا يستحيل تحقيقه !.

ونعود الى قضايا الفكر، والثقافة، والاعلام، والبحث العلمي، وهي في مجموعها تبلور وجه الحضارة الانسانية.

المادتان السادسة والثلاثون والسابعة والثلاثون تكفلان "حرية الرأي، وحرية الصحافة والطبع، والنشر، والبحث العلمي مكفولة" وتعطيان لكل انسان "حق التعبير عن رأيه ونشره بالقول، أو الكتابة، أو غيرها،

وفقاً للشروط والاوضاع التي بينها القانون".
وللحقيقة، فان السلطات الكويتية المسؤولية أخذت بهاتين المادتين، ومنحت الحرية للافراد في تطبيقهما الى أبعد الحدود.. حتى انقلبت هذه الحرية الى فوضى.
فمن هو المخطىء ؟...
السلطة التي تمثل الدستور ؟.
أم المواطن الفرد الذي يمثل وجدان الامة وضميرها ؟.
السلطة لم تخطيء الا انها "تركت الحبل على غاربه" للفرد، قبل أن تسلحه بالتربية السلوكية. والسبب، غياب البرامج المخططة المدروسة علميا لتنمية الانسان الذي يتشكل منه المجتمع.
أما المواطن الفرد.. فعليه تقع المسؤولية الاكبر، لأنه فهم الحرية فهما مغلوطا.. ولم يمارسها بقدر معقول من الرقابة الذاتية على تصرفاته الفردية. السبب أيضا يعود الى أنه لم يتدرب منذ بداية نشأته على معرفة التمييز بين السلوك العام، والسلوك الخاص. شأنه في ذلك.. شأن جميع المجتمعات النامية.
"إنّ المجتمع الكويتي كجميع المجتمعات التي تشبه الحدائق، تنبت فيها الحشائش الضارة الى جوار الاشجار الظليلة والورود الجميلة. معرض لأن تظهر فيه فئات هدفها التهديم، تعمل على القفز من فوق الدستور والقوانين، وتضرب عرض الحائط بالمصلحة الوطنية، ويسعى أفرادها الى التخريب، خارجين على روح المجتمع، عاملين على أن يقلبوا الحرية الى فوضى تهدف الى هدم معتقداتنا وأخلاقياتنا، وبث الشقاق بين صفوفنا".
لقد أدركت السلطة هذه الحقيقة المرة التي بدأت تظهر هذه التشوهات في وجه المجتمع الكويتي، وهي تشوهات يلمسها كل من يعرف الكويت. ولم يمضِ على وجودي في الكويت ستة أشهر، حتى فاجأ رأس السلطة التنفيذية، ودماغها الذكي، الشيخ جابر الاحمد الجابر الصباح - رئيس مجلس الوزراء - الى جانب كونه وَلياً للعهد. فاجأ جابر الأحمد شعب الكويت ببيان ألقاه في مجلس الامة، في جلسة حضرتها مع عدد كبير من الصحفيين العاملين في دور الصحف الكويتية، وكان بيانه بمثابة ناقوس الخطر.

الفصل الخامس

لمَنْ يُقرَعُ الجَرَسُ ؟

« ومن جملة الاخطاء الناجمة عن سوء فهم روح الديمقراطية ، وجوهر الدستور الكويتي ، ما ارتكبه بعض العاملين في ميدان الصحافة ، وذلك بانزلاقهم – تحت شعار حرية الرأي – في الطريق الكأداء » .

من بيان
الشيخ جابر الأحمد الصباح
في ٢٤ حزيران – يونيو ١٩٧٠

إذن، فإنّ وليّ عهد الكويت ورئيس مجلس وزارئها الشيخ جابر الاحمد الجابر الصباح الذي "يتمتع بالمزايا الخلقية المثالية، والكفايات الادارية الفذة، التي جعلت منه رجل دولة واسع الافق، بعيد النظر، شديد الحرص على النهوض بالمجتمع الكويتي الى أرقى المستويات الحضارية" • هذا الرجل اذن، ليس غريبا عن أورشليم، وهو كأهل مكة "عارف بشعابها" • فلماذا الصمت اذن ؟• ولماذا السكوت على الاخطاء ترتكب في وضح النهار، ويتستر مرتكبوها وراء شعار الديموقراطية التي ما فهموها كما يجب أن تفهم، فراحوا يتنطحون بالشعارات عبر وسائل الاعلام، وتحت قبة مجلس الأمة، أو مجلس "الأمية" كما وصفه أحد الظرفاء •

وجاء الجواب في البيان الذي ألقاه يوم الرابع والعشرين من حزيران – يونيه ١٩٧٠ أمام أعضاء مجلس الأمة، ورجال الصحافة، ليضع "المجتمع الكويتي، وكل مجتمع عربي، أمام مسؤولياته في عصر التحديات الكبرى" • ومن أبرز ما تضمنه البيان التاريخي، التركيز على الجوانب السلبية، والعلل الاجتماعية التي تبرز من خلال الممارسة الخاطئة للافراد، وتجري في ظل أنظمة سليمة وقويمة • وقد جاء قوله "أيقنت أن

ثمة شعورًا عاما بأن الوقت قد حان لنعيد النظر في الطريق التي نسير عليها، ورغبة صادقة لأن نضع لأنفسنا سياسة محددة ومستمدة من تجاربنا وظروفنا، تمارس الدولة بموجبها كامل صلاحياتها دون تردد".
جاء قول جابر الاحمد، ليضع الاصبع على الجرح.. وليضيء الطريق أمام الافراد مسؤولين وغير مسؤولين، ليميزوا في ممارساتهم بين السلوك العام، والسلوك الخاص.
وتبقى أصبع جابر الاحمد مرفوعة، لتمر على كافة الاخطاء، وتشير اليها باصرار ووضوح:
"لقد صار المتابع لمناقشاتنا وصحافتنا، يظن بنا جميعا ظن السوء، اذ كل كرامة قد أهدرت، وكل عمل لمصلحة المجموع قد أهمل، في بلد عرف كرامة أفراده، ومصلحة مجتمعه منذ عهد بعيد".
وتمضي الاصبع في تلمس كافة الجروح الملتهبة:
"أين مجتمعنا اليوم من مجتمعنا بالامس القريب ؟. الذي كان يضرب المثل به في الجد والشعور بالمسؤولية".
وجرح آخر لا يتجاوزه اصبع جابر الاحمد:
"ما الذي غير من حالنا ونحن نأخذ مع ذلك بأسباب التقدم والرقي، ونحاول أن نضع مجتمعنا في اطار حديث من التنظيم الدستوري والقانوني" ؟!.
وليس ذلك آخر الجروح..
لكن الاصبع يزداد ارتفاعا معلنا برفض صلب:
"ان مجتمعاً مصاباً بهذه الظواهر لهو مجتمع مريض، عرضة لأن تتفشى فيه الفوضى والاثرة والانانية، ولأن يصبح مسرحا للحقد والكراهية والتفرقة بين أبنائه. ولأن تنتشر فيه روح اللامبالاة، وانعدام الشعور بالمسؤولية، فيتفسخ، وليس بعد التفسخ الا الانهيار، وهذا ما نرفض أن يكون مهما كلفنا ذلك من جهد وتضحيات".

* * *

هل أعذر من أنذر ؟.
وهل عقل العاقلون ؟!.
لقد ظلت الحياة على نحوها الذي سبق بيان جابر الاحمد التاريخي، والاخطاء تزداد استفحالا.. والادارات تغرق في تهاونها.. والمؤسسات تغرق في تكاسلها.. والافراد يزدادون رخاوة.. وتسطحا. وإفلاساً علمياً، وثقافياً. ويَنتفخون ثراءً مادياً بمختلف طرق التجارة واساليب

الفجارة!٠٠ وبعد عام أو يزيد، شهد مجلس الامة جلسات ساخنة، وبدأ عدد من أعضائه يحذرون، وينبهون، ويلفتون الانظار - أنظار أعضاء الحكومة - الى ضرورة احياء روح بيان جابر الاحمد٠ وفي احدى تلك الجلسات الساخنة، رفع النائب عبد المطلب الكاظمي اصبعه وتساءل:

● ما هي الاسباب التي تؤخر الحكومة عن تنفيذ الحلول الجذرية التي دعا اليها بيان ٢٤ حزيران - يونيه ؟٠

وطرح النائب بدر ضاحي العجيل في جلسة مماثلة سؤالا أشد صراحة:
ما هي الخطوات العملية التي اتخذتها الحكومة، أو ستتخذها لتنفيذ البيان فيما يتعلق باصلاح الادارة، واستئصال شأفة الفساد منها ؟٠
وكان رد الحكومة بلسان وزير الدولة عبد العزيز حسين "انها - يعني الحكومة - تبذل جهدها الكامل في العمل على اصلاح الادارة، وتطبيق أحدث النظم التي تسهل سير العمل، وتمنع أسباب الشكوى٠ وهي في سبيل ذلك تعمل الآن على دراسة أوضاع الادارة في شتى مناحيها، وتأمل بعد ذلك، أن توفق لما فيه الخير والسداد للجميع"٠ وكان الخير والسداد لمصلحة رئيس وأعضاء مجلس الأمة الذين زيدت لهم رواتبهم وتعويضاتهم مقابل إلقاء الخطب العرجاء التي لا يتقنون كتابتها ولا قراءتها٠

والسنوات تمر٠٠
وبيان جابر الاحمد التاريخي، ظل كلمات٠٠ كلمات٠٠ كلمات !٠
الدولة تنفق مزيدا من الاموال٠٠
والاوضاع تزداد انحدارا٠٠
فضائح انخفاض مستوى الخدمات الطبية تفوح٠٠
فقدان القدرة في السيطرة على مستوى أسعار السلع الغذائية، وغيرها من المواد الضرورية، يزداد تهلهلا٠٠ ووزارة التجارة نائمة !٠
جرائم القتل، والخطف والسرقة، والاغتصاب، والتهريب تتسع دائرة انتشارها٠ ووزارة الداخلية لا حول لها ولا قوة٠ صارت الكويت، شيكاغو الخليج العربي،بعدما كانت درته ولؤلؤته، قبل النفط !!٠
الشوارع والطرقات تزداد تحويلاتها، وتكثر فيها الحفر٠٠ ووزارة الاشغال العامة لاهية بالاشغال الخاصة !٠
والصحافة تكتب، وتنشر، وتمارس حريتها في ابداء الرأي بأكثر مما أعطاها القانون، والدستور٠٠ تهاجم بعنف٠٠ تنقد بقسوة٠٠تشتم أحيانا٠٠ وتذكر بمحتوى بيان جابر الاحمد، ووزارة الاعلام مشغولة

بالبحث عن وزيرها الذي يحضر المؤتمرات بصفته وزيرا للخارجية !.
الفرد الكويتي - في غالبيته - يزداد انتفاخا كالطاووس، لأنه كويتي فقط !.. والأوضاع المجتمعية تزداد تفككا، وتفسخاً.. وتدهوراً.
هل هذه هي الكويت ؟...
وهل هكذا تريد أن تبني حضارتها ؟.
المثقفون من الشباب الكويتي يكتفون بمناقشة ما تتردى اليه الاوضاع في مجالسهم الخاصة، وفي الجمعيات.. ولكنهم لا يملكون مقدرات التغيير.
والاسطوانة لا تتغير ولا تنكسر..
ومزامير داوود في حالة اعادة وتكرار..
ومع هذا كله، فان خزانة الدولة تعطي ولا تبخل.. فيزداد عدد المؤسسات الصحفية.. وعدد الجمعيات الثقافية ونوادي رعاية الشباب.. ويظل منهج تنمية الانسان مفقودا. لكن وسائل الربح والاثراء السريع مشرعة الأبواب لكل من يحمل الجنسية الكويتية، خاصة إذا كان من أهل الدرجة الأولى.. ويتيح المال الفرصة امام هذا الكويتي لينتشر في عواصم الغرب، ويصرخ.. أنا كويتي !..
وتتحول جنسية الكويتي الى عقدة تتحكم في عقل الكويتي السائح بين سوهو.. وبارك لين.. وبين بيجال.. والشانزليزية.
ومن البديهي أن لا يتطور شعب، ولا يبلغ سن الرشد، إلا بتطوره الفكري، والفني، والعلمي. والمال وحده لا يقود الى بلوغ سلم التطور الحضاري.. بل يؤدي الى العكس تماما. فدول أوروبا لم تبلغ ما بلغته من تقدم حضاري وتكنولوجي بأموال النفط.. لأنها لا تملك حقولا منه ولا آبارا.. لكنها ملكت حقولا من الأدمغة، بالعقول.. وبثورات الفكر والثقافة، سارت دول أوروبا الى الديموقراطية التي تركزت على أسسها حضارتها..
بينما سبب تدفق البترول لشعوبنا ردة خطيرة، وقادتهم البحبوحة الى الكسل، والاسترخاء، وما هو أشد خطرا ورعبا منهما. ولم ينقذ من هذا الوباء، سوى من أقبل على العلم، والدراسة، والثقافة، وخرج من حدود الكويت الى العالم.. وهم مجموعة متميزة من الشباب الكويتي الطموح والراغب في بناء الكويت - فعلا - بناء حضاريا، تكون دعامته التنمية الانسانية. وهؤلاء ينتظرون الفرصة، ليؤدوا دورهم بوعي وشعور بالمسؤولية الوطنية التي نادى بها جابر الاحمد في بيانه التاريخي..

والذين أخذوا أمكنتهم، قلة قليلة ما تزال، وهم يحرصون على تقديم ما اكتسبوه من علوم وثقافات تلقوها في جامعات العالم، من خلال نشاطاتهم التي يقومون بها عبر الجمعيات التي تنتشر في انحاء الكويت •

وأبرز هذه الجمعيات نشاطا وفاعلية، ولكنها لا تلقى استجابات جماهيرية، رغم أنها تتلقى معونات من الدولة، تساعدها على تحمل أعباء الدور الذي تؤديه في التوعية الجماهيرية • جمعية الخريجين، رابطة الادباء، رابطة الاجتماعيين، والجمعية الكويتية للفنون التشكيلية •

هذه الجمعيات الاربع، لها بصمات واضحة في تطوير المجتمع الكويتي، وألاخذ بأيدي أفراده الى سلوك دروب الحضارة الاصلية •

جمعية الخريجين، لها مواسم غنية في الميدان التنموي • ولقد رافقت مواسمها التي درجت خلالها على اقامة أمسيات موسيقية، يقدمها أحد أعضاء الجمعية، وهو صالح حمدان، لتذوق فن الموسيقى وصقل الآذان الجماهيرية وتعليمها كيف تعتاد الاستماع والفهم •• وكانت مفاجأة الامسيات المتكررة في كل أسبوع، والتي تصيب المرء بالذهول، إعراض الغالبية العظمى من الشباب عن ارتيادها •• فكنت لا تلقى من الكويتيين في تلك الامسيات سوى عدد لا يزيد عن خمسة أشخاص •• وفي حالات نادرة يرتفع العدد الى عشرة •

رابطة الادباء، ويرئسها أحمد السقاف، هذه الرابطة كانت لاتترك اسبوعا من موسهما يمضي، دون أن تدعو الى أمسية يحييها، أديب، أو مفكر، أو شاعر، كويتي، أو عربي •• وأحيانا من بلاد الغرب •• ولم يكن الاقبال على أمسياتها من الكويتيين أفضل حظا من نظيرتها جمعية الخريجين •

رابطة الاجتماعيين، ويرئسها ، عبد العزيز الصرعاوي ، كانت تتولى دعوة المحاضرين في شتى العلوم الانسانية والاجتماعية •

الجمعية الكويتية للفنون التشكيلية •• ويرئسها خليفة القطان، كانت أكثر الجمعيات غنى في مواسمها الفنية، وأكثر الجمعيات استقطابا جماهيرياً، لأنها تعنى بالفنون التشكيلية، والكويتيون بطبيعتهم محبون للفنون •

■ أما الجمعيات الأخرى، كجمعية الصحافيين، والنهضة الاسرية، والجمعية الثقافية النسائية •• فكانت نشاطاتها محدودة بأطر ضيقة ••

بل ان بعضها - كجمعية الصحافيين - منعدم النشاط.
وقد منحت الدولة لهذه الجمعيات فرص تأدية دورها في حياة المجتمع الكويتي، لتحقيق تقدمه، ورفع مستويات أفراده ثقافيا وفنيا، لدفعه نحو التطور والحضارة الحقيقيين.. وخصصت لها المساعدات المادية اللازمة.. لكن الاستجابة الجماهيرية محدودة.. وقدرة الجمعيات على الاستقطاب أضعف من استعداد الفرد الكويتي في الاقبال على ممارسة هوايات أخرى كرياضة كرة القدم مثلا.. وحضور المسرحيات المحلية.
والسبب.. تلك - النفخة الكاذبة - التي يصاب بها الكويتيون منذ نعومة أظفارهم، والتي تنميها أساليب التربية العائلية المرتجلة، وترعى بذورها، المناهج التعليمية المنقرضة !.
ويعتبر المسرح أبرز ملمح من ملامح نهضة الكويت على المستوى الانساني. فقد "انبثق فجر الحركة المسرحية الكويتية في عام ١٩٥٦، مع قيام خشبة المسرح الشعبي، وما لبثت تلك الغرسة أن انقلبت الى نهضة مسرحية شاملة، تأسس خلالها عدد من المسارح بتشجيع من وزارة الشؤون الاجتماعية والعمل التي أسست في عام ١٩٦١ فرقة المسرح العربي".
ثم ظهرت فرق مسرحية أخرى، بعضها تغذيها الدولة وتمولها.. وبعضها الآخر قطاع خاص، تمده الدولة بمساعدات سنوية.
ولقد حقق الفن المسرحي في الكويت قفزات فنية حضارية تركت بصماتها واضحة على المجتمع، وحققت الفرق المسرحية التي قدمت عروضا خارج الكويت، وخاصة في المهرجانات المسرحية في "قرطاج" و "دمشق" نجاحات عظيمة.
ولأن الدولة راغبة في دعم المسرح وتشجيع النهضة المسرحية، لما لها من تأثير مباشر في عقول الناس، وخاصة الاجيال الجديدة، فقد "قررت منح الموظف الذي يمثل في احدى المسرحيات اجازة شهر لحين الانتهاء من عرض المسرحية". وبسبب ما يلقاه المسرح من عناية واهتمام من الدولة، فقد تطور تطوراً سريعاً، ونشطت الفرق المسرحية، وصارت تقدم بعض عروضها في العواصم العربية.
والمبادرة الفردية، كان لها فضل وضع أول بذور الصناعة السينمائية في الكويت، عندما قام "خالد الصديق" بمغامرته الاولى، فانفق كل ما استطاع أن يجنيه من مال لانتاج أول أفلامه الطويلة "بس يا بحر" الذي روى "قصة البحار الكويتي في صراعه مع البحر" قبل ظهور النفط.

فحقق به لبلاده إسماً عالمياً بعد عرض الفيلم في عدد من المهرجانات السينمائية الدولية، وحظي بعدد من الجوائز العالمية.. ولقد واجه خالد الصديق كافة التحديات التي اعترضت سبيله في مرحلة الاعداد للفيلم، كما واجه التحديات الاقسى بعد الانتهاء من مرحلة التصوير. ولم يتردد في محاربة خالد الصديق، كشاب كويتي مثقف، استطاع بمجهود ومبادرة فرديين أن يسمع اسم الكويت في أرجاء العالم.. لم يتردد أحد أعضاء مجلس الامة عن توجيه اللوم لوزارة الاعلام التي سمحت بعرض الفيلم في الكويت، وقدمت لمخرجه ومنتجه خالد الصديق بعض المساعدات المادية والفنية لاستكمال انتاجه. ولأن الدولة لا تتأخر في تقديم العون لمن يقدم أعمالا فنية تبلور الوجه الحضاري للكويت، فقد رد على اللوم وزير الاعلام ردا موضوعيا، وبرر دور الوزارة في تقديم المساعدة، بدأب الدولة على تنفيذ سياستها في تشجيع الاعمال الفنية المحلية، لاكساب العاملين في الحركة الفنية، مزيدا من الخبرة. خاصة وأن فيلم "بس يا بحر" جرت رقابته قبل عرضه على مجموعة "من كبار رجال البحر والغوض الموثوق بهم، فلم يعترضوا الا على مشهد واحد تم حذفه".
وقد جرى هذا النقاش في احدى جلسات مجلس الأمة.

لكن المفارقات المتناقضة لا تنتهي سلسلتها على جميع الاصعدة، وفي مختلف المجالات، ثقافياً، تربوياً، اقتصادياً، اجتماعياً، وصحياً، وغيرها من القطاعات العامة الأخرى.

المثقفون، والمفكرون، وأصحاب الرأي السديد من العرب الذين يعيشون في الكويت، لا يترددون في عرض آرائهم، وطرحها جماهيرياً عبر وسائل الاعلام المتنوعة لتعميم فوائدها.. لكن الآذان تظل صماء.. والعقول مغلقة، ولا أحد يثير مناقشة أي قضية من القضايا التي يطرحها، أو يثيرها أحد هؤلاء المثقفين، أو المفكرين، أو أصحاب الرأي.

* * *

الاستطراد في طرح الوقائع، وسرد الحكايات، وتثبيت الاحداث عن التناقضات في بناء المجتمع الكويتي، سلسلة تكاد لا تنتهي حلقاتها. وهذا الاستطراد مهما تضاعف وتضخم، لن يغير، أو يزيل التشويهات المصاب به وجه الكويت الانساني بعد الانفجار المالي الذي اتخم هذه البقعة من الوطن العربي الغالي، فأضر بجذور انسانيتها ولم يحولها الى وطن للعمر الآتي ولمستقبل الانسان العربي الذي يعيش على أرضها.
التغيير المطلوب، لن تحققه سوى ثورة اجتماعية بيضاء يفجرها

المواطن المثقف النقى الصافي، وتقودها النخبة الواعية من أهل الحكم.

■ وفقا لجميع التقارير التي تضعها مؤسسات دولية، يتضح بالاستناد الى تقرير أخير وضعه "البنك الدولي" أن الكويتي يحقق أعلى دخل فردي في العالم، اذ يبلغ دخل الفرد في الكويت كما يقول تقرير للبنك الدولي نشر في بداية عام ١٩٧٧ أكثر من أحد عشر الفا وخمسمائة دولار سنويا ... بينما لم يصدر أى تقرير يبين مدى ما تحقق للفرد الكويتي من ارتفاع في درجة ثقافته، وعلمه، وتطوره الحضاري انسانيا .. وهذه ظاهرة خطيرة في مجتمع يبنى على الاسس الديموقراطية في دستوره.
والمفارقة العجيبة هنا، أن بعض الدول الغربية التي بلغت أعلى المستويات في تقدمها الحضاري، تأتي في درجة رابعة لاحقة للدول العربية الثلاث (الكويت، الامارات، وقطر) من حيث دخل الفرد.
فسويسرا التي أصبحت أغنى دول العالم بتطورها التكنولوجي، والصناعي رغم افتقارها الى الثروات الطبيعية، يبلغ دخل الفرد فيها (٨٨٥٠) دولاراً سنويا، أي أكثر بقليل من دخل القطري البالغ (٨٣٣٠) دولاراً سنويا. وأقل من دخل مواطن الامارات العربية البالغ (١٠٤٨٠) دولاراًسنويا. وأقل من الكويتي الذي يأتي دخله في الدرجة الاولى. وبعد السويسري، يأتي الفرد السويدي في الدرجة الخامسة، ويليه الاميركي الذي يحقق (٧٠٦٠)دولاراً سنويا.
فما معنى هذه المقارنة بين تخلفنا - كعرب - نملك تراثا غنيا، وأرضا متخمة بالغنى، وبين تلك الدول الغربية التي تضم شعوبا متعددة، بعضها - أي تلك الشعوب - ليس لديها تراث وتاريخ في غنانا.. وبعضها أيضا - كأرض - لا تملك أي ثروة طبيعية كثروات أرضنا ؟.
أيضا انها احدى علل "الازدواجية" في ممارستنا للديموقراطية، أم أن فينا عللا أخرى لم نكتشفها بعد في أنفسنا ؟.
كعربي - يحلم - بالوطن الامثل.. أقف مشدوهاً حيال هذه المفارقة وغيرها من المفارقات التي تكاد سلسلتها لا تنتهي.
وكعربي يتوق الى تحقيق هذا - الحلم - بالوطن الامثل، أعترف بأننا لن نتمكن من بناء هذا الوطن الا اذا بدأنا بخطة اصلاحية تستند الى مبادىء الدين الحنيف، بتطبيقها، وليس فقط بترديد نظرياتها على طريقة " لا يصلح الله ما بقوم حتى يصلحوا ما بأنفسهم" نعرفها نظريا ولا نعمل بها.

أو على طريقتنا في ترداد وتكرار الحكم المأثورة في القرآن الكريم، وفي الاحاديث الشريفة، وتطبيق ما يتناقض معها تناقضا كليا • ولنضرب مثلا:

ليس لعربي فضل على أعجمي الا بالتقوى •

وفي الكويت ما تزال تطبق سياسة "أصيل وغير أصيل" و "كويتي درجة أولى، وكويتي درجة ثانية" •• وكلنا أخوة عرب •• وكلنا أيضا "في الهم شرق" !•• بينما لا تجد هذه الفروقات بين أسود وأبيض، أو مسلم ومسيحي في البلدان المتقدمة حضاريا •

ان الكويتي الاصيل، هو العربي الاصيل وحسب•• وان الكويتي غير الاصيل، هو من يعمل على تكريس التفرقة والتمييز•• وقد عرفت من اولئك وهؤلاء الكثيرين•• ولا أفشي سرا بالقول، ان كل كويتي بلغ النضج في بناء شخصيته علميا وثقافيا، برفض هذا الواقع، ويعمل على محاربته•• ومن هؤلاء نخبة طيبة تبني الوطن الدولة - والوطن المجتمع على هذه الاسس المتينة •

ولكنني لن أحجم عن ذكر بعض الحوادث التي عانيت منها خلال اقامتي في الكويت، والتي أفرزتها صفة "كويتي درجة أولى" • وهي سلاح خطير، يعمق التباعد بين المواطن وأخيه المواطن من جهة، وبين الكويتيين واخوانهم الوافدين من جهة ثانية • وهذا السلاح يؤدي الى مرض فقدان الاحساس القومي الذي يفضي بالتالي الى تأصيل الروح الانفصالية في وجدان الانسان العربي بوجه عام • ورغم تفاهة هذه الحوادث الفردية، الا أن تعددها، وانتشارها يفرز المعوقات التي تزيد في تفكك المجتمع الواحد، كما تقيم الحواجز في وجه التلاحم، والتقارب، والتعاضد، لبناء الوطن بناء حضارياً •

واذا كان "الخليج في وضعه - التفرقي - الحالي أعجز من أن يغير في العوامل الخارجية، فإنه من غير شك قادر على تلافي المعوقات الداخلية لاستمرار الانفصال اذا توفر الاحساس القومي السليم لدى القادة والعامة سواء بسواء" • ومن بين هذه "العوائق"، ما أتينا على ذكره، عن الازدواجية الحاصلة من عدم تطبيق روح الدستور القائم على المبدأ الديموقراطي كنقطة أساسية في ترسيخ النظام، ومن التصرفات الفردية التي سنورد نماذج عنها، بعد أن ننتهي من حكاية "كويتي درجة أولى" التي يتخذها البعض، سلاحا الى تحقيق مكاسب فردية على حساب المصلحة العامة في الوطن الواحد • أو يتخذها معبرا، وجسرا للاستعلاء

على من لم يشمله شرف الجنسية الدرجة الاولى ٠

* * *

الحكايات تكاد لا تحصى ٠٠

ومشكلة الجنسية في الكويت، تشكل أزمة حضارية أين منها مشكلة التمييز العنصري في روديسيا، أو مشكلة التفرقة بين اليهود الشرقيين، واليهود الغربيين الذين وفدوا الى فلسطين من مختلف الدول الاوروبية، والولايات المتحدة، والاتحاد السوفياتي بعد الاحتلال الصهيوني لكامل ألارض الفلسطينية ٠

ومنذ عام ١٩٦٩، ومشكلة الجنسية في الكويت يعايشها المواطن والوافد، وجذور المشكلة موغلة في قدمها، وتمتد الى أبعد من هذا التاريخ، لكن معايشتي لها بدأت منذ أن غدوت واحدا من أسرة تحرير صحف "دار الرأي العام" ٠ فكنت أطلع على ما يكتبه يوسف المساعيد عنها، كما كنت أقرأ رسائل كثيرة ترد الى مؤسسة الرأي العام، يشكو أصحابها أمرهم في عدم منحهم الجنسية الكويتية، رغم أنهم كويتيون أبا وجدا ٠ ولقد ظلت هذه المشكلة تتفاعل، وتزداد عمقا ٠٠ والسلطات المسؤولة تعد بانهائها، والملفات تتكدس ٠٠ والمشكلة تمد جذورها في العمق ٠٠ وتمر الاعوام، وأغادر الكويت ٠٠ ثم أغادر بلدان الخليج العربي ٠٠ وأستقر في لندن، ولا تنتهي هذه المشكلة ٠

وفي الخامس والعشرين من شباط - فبراير عام ١٩٧٧، تحتفل الكويت بعيدها الوطني السادس عشر، وتصدر صحف الكويت لتتحدث وتروي القصص المتعددة عن الانجازات الحضارية التي تحققت خلال هذه المسيرة، ولا تخلو بعضها من التلميح ٠٠ والتصريح بمشكلة الجنسية التي تشكل نقطة داكنة، وعلامة فارقة تشوه وجه الديموقراطية التي تنتهجها الكويت نظاما حضاريا منذ فجر استقلالها ٠

فتشرع الاقلام ٠٠ مطالبة بأن "تخترع" الدولة حلا نهائيا لمشكلة الجنسية التي باتت كوصمة عار تلطخ نقاء ديموقراطية الكويت ٠

ومما نشرته صحف الكويت، أختار بعض النماذج ٠٠

٠ للمواطن "عطا الله محمد جابر" نشرت جريدة "القبس" رسالته التي يطرح فيها مشكلته تحت عنوان "ماذا تم بملفات الجنسية المحالة لمجلس الوزراء" ؟ ٠ في العدد رقم - ١٧١٥ - الصادر بعد يومين من احتفالات الذكرى السادسة عشرة للعيد الوطني ٠

يقول عطا الله محمد جابر في رسالته:

أعمل في الكويت منذ ما يزيد على خمسين عاما٠ قدمت طلبا للحصول على الجنسية الكويتية، وقد علمت أن ملفات المواطنين أحيلت الى مجلس الوزراء لبحث أمور الجنسية٠ أريد أن أستفسر عما تم في هذا الموضوع حتى الآن٠
انتهت الرسالة٠٠

وكان جواب المسؤول الذي نشرته الصحيفة على النحو التالي "على هذا الاستفسار، أجاب رئيس قسم الصحافة بادارة العلاقات العامة بوزارة الداخلية، الملازم أول فهد الجويهل قائلا:
"لا زالت الملفات بادارة الفتوى والتشريع، وهي قيد البحث والدرس لاتخاذ اللازم"٠
انتهى الجواب٠٠
ولم يصل المواطن عطا الله محمد جابر الى حل٠٠
خمسون عاما وهو بنتظر أن يكون له هوية٠٠ جواز سفر٠٠ ورقة تحدد انتماءهالى وطن٠
خمسون عاما٠٠ عاشها المواطن عطا الله محمد جابر يأكل ويشرب٠٠٠ ويعمل٠٠ تحت سماء الكويت، وهو لا ينتمي بالمواطنية اليها٠٠ ولا يعرف الى أي وطن ينتمي٠
خمسون عاما، وهو، ومثله ربما أكثر من خمسين الفا يجهلون انتماءهم الى وطن، رغم أن ولاءهم للكويت !!٠ ولا يعرفون وطنا آخر يمنحونه ولاءهم، ويمحضونه اخلاصهم وتضحياتهم٠
ان بعض الدول، تمنح جنسيتها للوافدين اليها عندما تتوفر أبسط المبررات التي تكسب الجنسية لطالبيها٠
ففي معظم الدول الاوروبية - الديموقراطية - يحق لمن وفد اليها وعاش فيها خمس سنوات أن يطلب الجنسية٠
أو يحق لمن يتزوج احدى المواطنات "الاصيلات" أن ينال حقوق الجنسية، كحرية الاقامة، والعمل، الخدمات٠ وبعد فترة زمنية قد لا تزيد على الاربع سنوات٠٠ يصير مواطنا ويتمتع بكافة الحقوق، وتطبق عليه كافة الواجبات٠
وفي بعض الدول العربية، يحق لمن مضت على اكتسابه جنسيتها مدة عشر سنوات، أن يتولى مناصب عليا في الدولة، وأن يرشح نفسه للانتخابات البلدية، أو لعضوية مجلس الامة، أو مجالس الشعب٠
فما معنى أن لا ينال مواطن عاش في الكويت خمسين عاماً، الجنسية

الكويتية ؟ ٠

ألِأنّ الكويت دولة (نفطية) ، وبالتالي يجب أن تبقى الجنسية الكويتية محصورة ب "بني نفط" على حد تعبير الكاتب الكويتي سليمان الفهد؟

* * *

اذا كان هذا هو السبب في حجب حق الجنسية عن أي مواطن عربي ولد في الكويت ، أو عاش فيها بعد أن وفد اليها ٠٠ أفلا يتناقض هذا مع روح المادة الاولى من الدستور الكويتي ، والتي تنص على أن "شعب الكويت جزء من الامة العربية ؟" ٠

المواطن الكويتي - العربي - يرفض هذه الصورة التي تشوه ديموقراطية الكويت ٠ والنخبة المثقفة المتعلمة من المواطنين الكويتيين ، لا يتردد أحد من أفرادها في ابداء الرأي ، ومعالجة هذا المظهر التخلفي ٠٠ وفي مقدمة هذه النخبة ، المفكرون ، والكتاب ، والصحفيون ، ومعظمهم ، ان لم يكن جميعهم من أصحاب لقب "كويتي درجة أولى" ٠ ويأتي في مقدمة المقدمة ، أفراد الاسرة الحاكمة من "آل الصباح" الذين (يمتعضون) كلما أثيرت أمام أحدهم قضية الجنسية ، أو مهزلة كويتي ٠٠ درجة أولى ٠٠ وكويتي ٠٠ درجة ثانية !! ويبقى الامتعاض امتعاضاً ٠ والشواهد كثيرة ٠٠

لقد عرض للمشكلة في أكثر من مناسبة ، محمد مساعد الصالح ، صاحب جريدة "الوطن" ورئيس تحريرها ٠ وفي عموده اليومي "الله بالخير" كتب كثيرا ٠٠ مرة ملمحا تلميحا ٠٠ وأخرى مصرحا تصريحا ٠٠ مرة ناقدا رقيقا ٠٠ وأخرى معالجا وموجها ٠٠

وجميع محاولاته طويت في أرشيف النسيان ! ٠٠

ولعل قوله ان كثيرين "ممن ولدوا في الكويت ودرسوا في مدارسها" لهم أمنية ، بمناسبة احتفالات العيد الوطني وهي إعطاؤهم الجنسية الكويتية ، أو على الاقل ايجاد نظام يرتب حالتهم ويجعلهم يشعرون بالاستقرار في الكويت" ٠ لعل قوله هذا كان من أرق ما كتبه رغم مايصطبغ به من مرارة ٠

ولحكاية الجنسية الكويتية شؤون كثيرة ، وشجون مثيرة ٠٠ وفي احدى معالجاتها ، تعرضت صحيفة "السياسة" لها مستندة الى كثرة الشكاوى وتزايدها بشكل مثير للانتباه ٠

بمناسبة عيد الكويت الوطني - وهي المناسبة الاكثر تأثيرا - في قلوب

الامير وأبناء الاسرة الحاكمة، كتبت "السياسة" عن شؤون الجنسية، وشجونها، لأن معظم الشكاوى التي تتسلمها ادارة الجريدة "تعتبر مشكلة الجنسية القاسم الاعظم فيها . فبين أفراد الاسرة الواحدة، هناك من يحمل الجنسية بالتأسيس" . وكلمة بالتأسيس تعني الدرجة الاولى . "بينما أخوه يحمل الجنسية - مادة ثانية" . وقد اختارت الصحيفة عبارة "مادة ثانية" تخفيفا لثقل مضمون "درجة ثانية" التي توسع الفجوة بين الكويتيين . "في وقت - تقول السياسة - تجد أن أخا ثالثا لهما لا يحمل جنسية على الاطلاق" . ويتفرع عن المشكلة الرئيسية، مشكلات جانبية أخرى لا تهمل السياسة معالجتها فتتطرق اليها بالقول أن "هناك أيضا مشكلة تجنيس الطلبة سواء في المرحلة الثانوية أو الجامعية، وهي تمثل هنا قضية مصير بالنسبة لهؤلاء الشباب وعائلاتهم، وأمام هذا الوضع الذي يعانيه قطاع كبير من الشعب" . ويجب أن نضع خطا تحت قطاع كبير من الشعب، لأن العبارة قد تعني ثلث الشعب أو أكثر . وبعد أن نضع هذا الخط - وليكن أحمر - نتابع القضية كما تعالجها "السياسة" فتقترح "أنه يصبح لزاما - وهو أمر لا يغيب عن الجهات المختصة - أن يأتي القانون الجديد شاملا لكل شيء، ومحيطا بالمشكلة بكاملها من واقع المتغيرات التي مرت بالكويت على مدى الحقبة الماضية، وبحيث يعطى حق الجنسية والمواطنة لكل مستحق لها دون أن يخوض في متاهات الاجراءات الطويلة، وبدون حاجة الى آخره..."

والمعالجة لا تتم بالتمنيات.. بل بالعقل، والتفكير، لكي تتخلص الكويت من هذا التشويه لصورتها الحضارية.. وليعاد رسم أفضل الاشكال لكويت الغد.. كويت المستقبل.. كويت وطن العمر الآتي، كويت العرب، ويتناول "حسين العتيبي" وهو من صفوة الشباب الكويتي، ومن الكتاب الذين زاملتهم خلال فترة اقامتي في الكويت، ودأب في مقالاته على معالجة كافة العيوب التي تعتري مجتمعه دون أن يكون للدستور ذنب في وجودها.. ومن معالجاته التي يطرحها تركيزه على "مستقبل وتطلعات هذا البلد في محاولة لرسم الاشكال التي نريدها لكويت الغد.. فاضافة للنشوة الوجدانية، نحن بحاجة أيضا الى نشوة عقلية - ان جاز التعبير - تجعلنا نقدم عطاءعقليا، أو بمعنى آخر (وهو يكتب بمناسبة العيد الوطني) أن نجعل أساليب ومجالات الشعور بالعيد متنوعة، فيها الجانب العقلي الذي يجب أن يفكر ويراجع، ويحاسب ويخطط، اضافة الى مجالات المشاركة الاخرى من احتفالات وما شابهها"

ويسترسل في تصوره بالقول أنه "من الوفاء لهذه الارض، التفكير بمستقبلها وامكانات تطورها بكل التجرد بعيدا عن أية مصلحة ذاتية خاصة.. وهذا أمر يتطلب الاخلاص والصدق.. والبداية في ذلك تأتي من الاخلاص والصدق مع النفس الانسانية ذاتها". حتى يخلص الى الاشارة لاهمية ما أعلنه أمير الكويت عن قرب تشكيل لجنة تنقيح الدستور، فيقول، "من هذا المنطلق يجب أن نسير في محاولة لرسم الخطوط العريضة لكويت المستقبل، ومن هذا المنطلق علينا أن نراجع حساباتنا وممارساتنا وأن ندعو الى مزيد من المكاشفة والمصارحة لاننا لا نستطيع أن نبني المستقبل بناء صحيحا، اذا ما فهمنا الحاضر فهما خاطئا".
وينتهي حسين العتيبي في رأيه الى "أن النظر للدستور ومحاولة إعادة قراءته وكتابته، ليست بالامر الهين، أو اليسير. فاذا كانت في الدستور الحالي بعض العيوب، أو الثغرات، فهذا يجب أن يدفعنا الى النظر في الجوانب الايجابية الاخرى التي فيه، ولعل القضية الاساسية في مادة، صياغة الدستور، هي أن نضع في عين الاعتبار تصورا مستقبليا بعيد المدى، حتى تأتي الصياغة المنتظرة، متناسبة تناسبا تاما مع التصور المستقبلي، لأننا اذا ما أخذنا المرحلة الحالية وظروفها الموضوعية كأساس لتصور الصياغة الدستورية المناسبة، والمتناسبة معها، فاننا بذلك نتعامل تشريعيا مع مرحلة مؤقتة قد تتغير ظروفها وأحوالها".
كما يركز أحد كتاب صحيفة "الوطن" على السلبيات التي تمارس في الحياة الكويتية، ويطالب بازالتها، فمما لا شك فيه أن تكون الاحتفالات بالعيد الوطني "فترة تأمل نتذكر فيها سلبيات مسيرتنا.. وذكرى الاستقلال مناسبة طيبة لنذكر الاخطاء، ولنتلافاها مستقبلا. اننا ولكي نكون شعبا ودولة جديرين بالاستقلال، يجب علينا أن نسلط الاضواء على السلبيات والاخطاء، وهذا ليس عيبا.. بل اننا كلما تذكرنا أخطاءنا، كلما كان هذا دليلا على أننا شعب يفكر.. وقادر على أن يتجاوز السلبيات ليحولها الى ايجابيات". ولعل من أبرز تلك السلبيات وجود درجات في منح الجنسية.
وهكذا، نرى من أوجب الواجبات على كل فرد أن يغلب المحتوى على الشكل في تجربة الكويت الديموقراطية. وان من أوجب الواجبات أيضا، أن يعمل الافراد من خلال المؤسسات العامة والخاصة على الفصل بين "السلوك العام" و "السلوك الخاص" حتى تتفادى الكويت الشعب، والكويت الدولة، الخطأ في تغليب الشكل على المحتوى في التجربة

الديموقراطية التي كانت رائدة التجارب في منطقة الخليج العربي، نهجت على منوالها البحرين، وقطر، والامارات العربية المتحدة. واذا كانت التطورات القانونية والدستورية لأنظمة الادارة والحكم في الكويت أولاً، وفي البحرين ثانياً، وفي قطر، ودولة الامارات العربية المتحدة ثالثاً، تعتبر ذات أهمية كبيرة في تاريخ دول الخليج العربي، إذْأنها ستؤدي ولا شك "الى افساح المجال أمام الشعب العربي في هذه المنطقة، للمشاركة في نظام الحكم القائم، وتحمل نصيبه من مسؤولية الادارة في ظل الدستور والقانون والنظام. وتعتبر هذه التجربة - كما يحللها الدكتور حسين محمد البحارنة - الديموقراطية الحديثة، المكفولة بدستور مكتوب في كل من الكويت والبحرين وقطر والامارات العربية المتحدة، منطلقا للشعب العربي في الخليج لاثبات وجوده وكيانه الجديد، وتجسيد قدراته الجمة في توجيه زمام الحكم نحو طريق الأمن والاستقرار الديموقراطي الدستوري لنظام الحكم في هذه البلدان، التي يجب أن تتعاون وتتنسق فيما بينها في مجال تطبيق المبادىء الديموقراطية الحقة، حتى يستفيد من هذه التجربة الدستورية، كل شعب المنطقة وفي كل بقعة من أراضيه الغنية بالخيرات والعطاء".

* * *

واذا كان لابد لنا من استعراض بعض سلبيات "السلوك الخاص" لبعض الافراد من خلال مواقعهم كمسؤولين في المؤسسات الخاصة، وتترك هذه السلبيات الفردية تأثيرا سيئا، ومسيئا لديموقراطية الكويت التي تريد بناء حضارتها بناء سليما لا ينتهي عند حدود اقامة المصانع والمنشآت.. وتعبيد الطرق، بل يتجاوز ذلك الى بناء الانسان بناء عقليا قبل كل شيء. اذا كان لابد من استعراض بعض هذه السلبيات، فانني أقصرها على الانعكاسات التي تضمنتها تجربتي الذاتية في الكويت.

فالمدة التي أمضيتها في دار الرأي العام، وتعاملت خلالها مع جميع أفراد أسرتها على الصعيدين الشخصي والمهني، تكدست لدي انطباعات مؤلمة نتيجة الاحساس بالاضطهاد غير المباشر من قبل أصحاب صحف تلك الدار الصحفية، لم يتكون شعور مماثل له عندما انتقلت للعمل مع عبد الله يعقوب بشارة في مجلته "اليقظة" قبل أن يصبح ممثل الكويت في الامم المتحدة.. أو عندما عملت مع باقر خريبط مديرا لتحرير مجلة "صوت الخليج"، الذي يتحلى بأفضل المزايا الخلقية، وكان لا يدع من يعمل معه يشعر بالغبن أو الجور.. بل كان يغتنم المناسبات، ليشارك

العاملين معه فيها، ولن انسى موقفه الأبوي النبيل،عندما رزقت ولداً خلال الفترة التي عملت فيها معه.

الفصل السادس

كويتي .. درجة أولى !

« بعد ان اتخذنا الديمقراطية مذهبا اجتماعيا ، ونظاما أساسيا .. تحولت على أيدينا إلى تاجر فاجر ، وغبي متشاطر جاء على مثالنا . وكيف أن هذه الديمقراطية لها وجه آخر .. وصورة اخرى في أوروبا ؟ »

جورج جرداق

■ لعلّ من أبرز العقد النفسية التي تتحكم في الفرد الكويتي، هي جنسيته..

وهذه الجنسية، مصدر صراع طبقيّ بين الكويتيين من جهة، وبين المتجنسين بالجنسية الكويتية، والعرب المقيمين في الكويت بجنسياتهم، من جهة ثانية.

والمجتمع الكويتي - في عصر نهضته - البترولية التي سبقت العهد الاستقلالي بما يزيد على ثلاثين سنة، ينقسم الى طبقتين:

■ طبقة الكويتي الأصيل !، ويسمى دستوريا "كويتي بالتأسيس".

■ طبقة الكويتي "البيسري"!، وهو الكويتي بالتأسيس أيضا.

وثمة طبقة أخرى هي الكويتي بالتجنيس، واسمها دستوريا "كويتي مادة ثانية".

أما الكويتي الاصيل، فهو الذي ينتمي الى الاسرة الحاكمة، أو الى طبقة العائلات العريقة في الجاه، والغنى، وأعمال التجارة، ممن ملكوا مراكب الصيد والغوص على اللؤلؤ.

و "البيسري" هو من عامة الشعب، ممن يمارسون الحرف والصناعات اليدوية البسيطة، أو ممن كانوا يغوصون لحساب أصحاب المراكب من ربابنة صيادي اللؤلؤ وتجاره.

على أن أبناء هاتين الطبقتين، ينتمون جميعهم الى القبائل النجدية الثلاث المعروفة بالعتوب، أو، (بني عتبة) من "عنيزة" في الجزيرة العربية، وكانت هذه القبائل، هاجرت الى الكويت عام ١٧١٦، واتخذتها موطنا جديدا لهم . تاريخئذ، كانت المنطقة التى هاجرت اليها قبائل "عنيزة" معروفة باسم "القرين". والقبائل العتوبية الثلاث هي "آل الصباح" الذين يحكمون الكويت. و "آل خليفة" الذين يحكمون البحرين. و "آل جلاهمة" الذين هاجروا الى قطر. ولكن لم يكن لهم تأثير أو دور في تأسيس حكم هناك، وأما تأسيس "آل الصباح" نظام حكمهم في الكويت، فيعود الى أكثر من مئتي سنة بقليل. وقد اتفقت معظم المراجع التاريخية على أن عام ١٧٥٦ كان بداية الحكم "الصباحي" في الكويت، بعد أن نزح اليها ذلك التاريخ، الشيخ صباح "الحاكم الثاني في الاسرة، من موقع القبيلة السابق في - أم قصر - الى - الكوت -. التي تحول اسمها الى الكويت. وهو نفسه الذى أجمع "المستوطنون" في الكويت منذ عام ١٧٥٦ على انتخابه عميدا لاسرة الصباح، وهو صباح بن جابر، الذي عرف بعدئذ باسم "صباح الاول" أو "صباح الكبير".

على أنني بذلت من الجهد، في المطالعة التاريخية للبحث عن كلمة "بيسري" التي يطلقها بعض أبناء الاسر الكويتية على اخوانهم الآخرين من الكويتيين الفقراء، فلم أجد مصدرا. فاكتفيت بالتعريف الذى قاله لي "محمد ناصر السنعوسي" وكيل وزارة الاعلام الكويتية المساعد لشؤون التلفزيون، في أن "البيسري" هو من ينتمي الى الكويتيين الذين يمارسون الصناعات والحرف الصغيرة، ولا يحق له اعتلاء منصب كبير في الدولة، وأضاف السنعوسي - وكنت أجري معه تحقيقا صحفيا لمجلة النهضة. وكان ايامئذ يتابع دراسته الاعلامية في الولايات المتحدة الاميركية - أضاف بقوله "انني بعدما أنهي دراستي، سوف أتولى منصبا مهما في الدولة"، مع العلم أن المادة (٤١) من الدستور قالت "لكل كويتي الحق في العمل وفي اختيار نوعه" و "تقوم الدولة على توفيره للمواطنين". ولم يشر الدستور الى الطبقة الاجتماعية.

واذا أوغلنا في التاريخ عمقا، لرأينا أن جميع شعوب منطقة الخليج العربي، ومنهم الكويتيون، يرتبطون بحضارات ما بين النهرين، وخاصة الحضارة السومرية في العراق. وكان الكنعانيون - وهم قبائل سامية - أول من سكن سواحل الخليج، ثم رحلوا الى سورية وفلسطين. وتبعهم

الفينيقيون الذين سكنوا سواحل الخليج وجزر البحرين (دلمون) قبل أن ينزحوا في منتصف القرن الثاني قبل الميلاد الى سواحل البحر الابيض المتوسط. كما استوطنت هذه السواحل الخليجية قبائل عربية نزحت من اليمن بعد انهيار سد مَأرِبْ قبل أكثر من ١٢٠ عاما على ميلاد المسيح، ولما ظهرت الدعوة الاسلامية في القرن السادس الميلادي، أصبح الساحل الشرقي للجزيرة العربية، خاضعا للحكم الاسلامي، واستمر من عصر الخلافة حتى أواخر العصر العباسي في نهاية القرن التاسع الميلادي - المائة الثالثة للهجرة -. ومن الحركات التي سيطرت على المنطقة ومنطقة الساحل الشرقي للجزيرة العربية التي عرفت باسم - البحرين - حركة "الزنج" وحركة "القرامطة" الذين انتهى حكمهم، بعد منتصف القرن العاشر الميلادي، بعدئذ خضعت المنطقة لحكم ونفوذ القبائل العربية المتعاقبة، كقبائل "العيونيون، وبنو نيهان، وبنو جبر" وجميعها من نجد.

واستمرت المنطقة تحكم قبائليا حتى بداية القرن السادس عشر، الذي بدات السيطرة الاستعمارية الاجنبية على منطقة الخليج مع بدايته.

فمن أين جاءت تسمية "البيسري" بعد هذه الرجعة التاريخية؟. لست أدري؟. وما أدريه، هو أنني خلال السنوات الخمس التي عشتها في الكويت، كنت أسمع "بالبيسري" ولا أراه .. لأنني لا أؤمن - عربيا - بهذه التقسيمات التي تطلق على المواطن الكويتي، فتنعته بالاصالة أو بغير الاصالة، وهو في تحصيل الحاصل عربي .. لكنها عقدة من مركبات النقص في النفس التي يرسخها الجهل، والتخلف. وهما - الاستعمار الحقيقي - بعد زوال أشكال الاستعمار الاخرى.

■ وهناك المتجنسون بالجنسية الكويتية..

وهؤلاء يطلق عليهم، أهل الدرجة الثانية..

ومن حمل من هؤلاء جواز السفر الكويتي.. صار كويتيا من الدرجة الثانية.. وهذه مصيبة أخرى من مصائب التفرقة والتمييز بين أبناء الوطن الواحد. وهي بحكم وجودها، في هذا المجتمع، تفرض أسلوب "السلوك الخاص" على الافراد.. فتجد (الكويتي درجة أولى) في سلوكه الخاص، يختلف عن "الكويتي درجة ثانية". فهل حدد الدستور الكويتي درجات الجنسية، وهل أباح لابن الدرجة الاولى أن يكون سيدا على ابن الدرجة الثانية؟. ولماذا لم نلمح هذه "الظاهرة" الحضارية في البلدان والدول الاخرى، خاصة التي تنتهج النظام الديموقراطي أساسا

للحكم؟ حتى الدول غير الديموقراطية في أنظمتها، نجدها تطبق الديموقراطية في منح الجنسية، ففي اتحاد الجمهوريات السوفيتية، لم نسمع عن مواطن سوفيتي من الدرجة الاولى، وآخر من الدرجة الثانية.. وفى المملكة المتحدة – وهي أم الديموقراطيات – الجميع بريطانيون وولاؤهم للتاج البريطاني. في الاتحاد السويسري الذي تتألف شعوبه من الالمان والفرنسيين والطليان، وبعض الجاليات الصغيرة، جميعهم سويسريون بدون درجة. الصين.. أكثر من تسعمائة مليون انسان – بينهم مسلمون – وكلهم صينيون.. الولايات المتحدة الاميركية، شعبها انكليزى، هندي أحمر، اسباني، برتغالي، الماني، وفيه عرب أيضا، لبنانيون، فلسطينيون، مصريون، سوريون، وجنسيات أخرى ربما لم نسمع بها.. والكل أمام القانون والدستور، أميركي !!..
حتى لا نبتعد عن حدودنا العربية .. فالاكراد، والارمن، والعرب، والسريان وغيرهم في سورية، سوريون، في لبنان، لبنانيون، اليونانيون والايطاليون، والأقباط، مع النوبيين، والعرب، في مصر .. مصريون.
وحتى نقترب أكثر، في المملكة العربية السعودية، ليس ثمة سعودي درجة أولى، وسعودي درجة ثانية !!!.
ونعود الى السؤال، هل حدد الدستور الكويتي الذي انبثق من النظام الديموقراطى، درجات الجنسية ؟!!.
لَمْ يَرِدْ أيٌّ نصٍ في الدستور الكويتي،الذي صَدَّقَ عليه الأمير الراحل الشيخ عبد الله السالم الصباح، بعد الاطلاع على القانون رقم واحد، لسنة ١٩٦٢، الخاص بالنظام الاساسي للحكم في فترة الانتقال، وصدر فى قصر السيف للرابع عشر من جمادى الثاني، ١٣٨٢ هجرية، الموافق للحادى عشر من نوفمبر – تشرين الثاني ١٩٦٢. لم يرد فيه أي مادة تشير بصورة مباشرة، أو غير مباشرة الى درجة الجنسية، وما اذا كان الكويتى أصيلا أو غير أصيل، سوى المادة /٨٢/ التي اشترطت في عضو مجلس الامة "أن يكون كويتي الجنسية بصفة أصلية وفقا للقانون".
فما هو التفسير الذي يقودنا الى فهم معنى عبارة "أصلية" التي وردت فى المادة الدستورية؟
هل "الاصلية" مرادف للاصالة؟..
نحن نعرف أن كلمة "أصلية" يرتبط معناها باحدى الجهات الاربع، شرق، غرب، شمال، وجنوب. وثمة جهات فرعية، يعرفها كل من درس

مبادىء الجغرافيا وعلم الفلك٠
وقد تعني كلمة "أصلبة" أنها مرادفة؛ للجودة، والاتفاق، والقوة، أو المتانة٠
أما "الاصالة" فلها معان أخرى، تختلف عن تلك المعاني التيعرفنا بها كلمة "الاصلبة"، وهي تفسيرات ومترادفات لا يختلف عليها اللغويون، أو أنصاف المتعلمين، في عالمنا العربي٠
مرة ثانية٠٠٠
هل هذه "ازدواجية" بين ديموقراطية الجوهر، وديموقراطية السطح المتفشية في بلدان صحراء الخليج العربي؟٠
كنت أحس، وأشعر من تعاملي مع بعض الكويتيين على مختلف الاصعدة الرسمية، والاجتماعية، أن الديموقراطية الكويتية، يكاد لا يماثلها ديموقراطية أخرى من حيث جوهرها الاصيل٠ وفي ظروف أخرى، كنت ألمس لمسا يكاد من شدة القسوة يجرح، من البعض الآخر أنهم لا يعرفون عن الديموقراطية الا اسمها٠٠ وبالتالي ليس لها وجود الا في الدستور٠٠ وتنطح هذا البعض بالديموقراطية ليس إلا من قبيل "الاستهلاك"٠٠ وما هي الا ديموقراطية السطح٠
ازدواجية في التنظير والتطبيق، تنتشر، وتتعمق جذورها في وطن واحد، وشعب واحد !٠٠ لماذا؟٠
هل سببها سيطرة النزعة المادية، غير المقرونة بالغنى الفكري الذي توفره العلوم والثقافات، ولا يمكن أن تجلبه جميع الثروات المادية مهما تعددت مصادرها، اذا لم تستغل استغلالا ايجابيا في برامج التنمية الانسانية؟٠
لنستمر معا في الدرس الثاني، لعلنا نجد الجواب على هذا السؤال٠٠ لعل القاريء يلغي من ذهنه علامة الاستفهام الكبيرة !٠

الفصل السابع

كويتي .. من بريطانيا العظمى

« الحكومة مشغولة بالاصلاح بين – عدن وظفار –
ليتها تصلح أولا ما بينها وبين الشعب ! »
من إحدى جلسات
مجلس الأمـة
الكــويتي

■ مما تقدم من حوادث وأحداث، ومن اشارات الى المواد الدستورية ومقارنتها بالتطبيق العملي في مختلف مرافق الحياة العامة الكويتية، ما فيه الكفاية لكي أكون قد ألقيت بقعة ضوء نتلمس من خلالها سبل تصحيح مسار هذا الجزء من الوطن العربي في اسلوب الحكم، والحياة، والغاء الازدواجية الممزقة لشخصية هذا الانسان العربي.
ولكي لا نعمد الى المغالاة في ادانة الخطأ نتناول في النهاية بعض الهوامش التي تلقي إضاءات مهمة على حقيقة الأوضاع القائمة في الحياة الكويتية. وهذه الاضاءات، تلقيها حقائق لا لبس عليها، صدرت عن مؤسسات كويتية وافراد كويتيين يمثلون مختلف القطاعات والفعاليات.
على انني قبل ان اختم هذا الفصل، وانتقل الى فصل "الهوامش" أجد لزاماً، وحقاً علي، ان أثبت قصة قصيرة جداً عن مشكلة الجنسية في الكويت، وتعرض المجتمع الكويتي الى مزيد من حالات الإنهيار بسبب التفاوتات الطبقية المريعة، والى "التفسخ" الأجتماعي الذي حذر منه الشيخ جابر الأحمد الصباح في بيانه التاريخي سالف الذكر.
القصة نشرتها صحيفة "الرأي العام" في عددها الصادر خلال شهر كانون

الأول من عام ١٩٧٨ وحمل الرقم "٥٣٨٤" تحت عنوان "ام حامد ومشكلة الجنسية" وجاء فيها :

● السيدة "أم حامد" من الدسمة بعثت الى "مشاكل الناس" برسالة تقول فيها :

إنني امسك قلمي المتواضع لأخط لك عن مشكلة اجتماعية نعاني منها وهي مشكلة الجنسية فإليك قصتنا راجية نشرها :

نحن ٣ صبيان، وأنا الابنة الوحيدة. والدنا قضّى في الكويت ٥٠ عاماً، وربما أكثر. ليس لديه أيّ دليل يثبت ذلك، سوى عقد الزواج الذي مضى عليه الآن ٣٢ سنة. والدي ليس لديه جنسية لأنه لم يتقدم الى اللجان في حينه. انا اختهم المتزوجة لدي جواز سفر كويتي. واخي الذي يصغرني أكمل الجامعة ولديه جنسية وجواز بعد انتهائه من الثانوية حصل عليها وهو الآن في بعثة الى اميركا لمدة خمس سنوات . الضحية اخواني : اخي الصغير ١٩ سنة لديه شهادة ميلاد كويتية واجازة قيادة درس حتى اول ثانوي وهو يعمل بالجيش بالسلاح الجوي منذ سنة وهو مبعوث لاميركا لمدة سنتين للتدريب هناك.

أخي يوسف عمره ٣٠ سنة لديه شهادة ميلاد كويتية يعمل بوزارة الكهرباء والماء ودرس حتى الأول ثانوي. ليس لديه الجنسية - انهم بدون زواج - بدون اجازة قيادة الى الآخر. ليس لهم حقوق كالكويتيين مع العلم انهم من أبناء هذا البلد ولم يخرجوا منه ابداً.

أنقذونا مما نحن فيه.

● المحرر : إنّ قانون الجنسية الجديد سيصدر قريباً جداً ومن شأنه أن يعالج جميع مشاكل الجنسية بالشكل الذي يضع الأمور في نصابها الصحيح وعلى الأخص في ما يتعلق بالطلبة والعاملين في الجيش. الصبر طيب.

بعد قصة ام حامد، رد المحرر عليها - وهو رد تقليدي يجاب به على جميع الرسائل المماثلة - لأن الصحافة لا تملك عصا سحرية تخترع القوانين، وتضعها قيد التنفيذ. انها مجرد أدوات لتخدير الناس، وامتصاص نقمة بعض أهل الوعي منهم.

بعد هذه القصة، أروي قصة ابني "الرجاء بالله". وهي حكاية فيها من الطرافة أكثر مما فيها من الأسى.

في عام ١٩٧١، رزقت بمولود - خلال فترة عملي مديراً لتحرير مجلة "صوت الخليج" - فاخترت له إسم "ألرَّجاء بالله" وحين أخذت شهادة

ميلاده من المستشفى الى مكتب تسجيل المواليد، وقرأ الموظف المسؤول الاسم، نظر الي وقال :
- هذه أول مرة أسجل اسما لطفل ولد في الكويت لا يبدأ بالأسماء المتداولة مثل "صقر، فهد، فجحان، خلفان" الى آخر اللائحة المعروفة، و"الرجاء بالله" سيكون أول كويتي يحمل هذا الاسم في جواز سفره.
وحتى لا أثير جدلا حول الجنسية الكويتية، لم أقل لهذا الموظف ان ولدي لن يحمل جواز السفر الكويتي حتى لو أمضى عمره كله في الكويت.
وبعد أربع سنوات غادرت الى قطر لأمضي حوالى سنتين عملت سكرتيراً لتحرير مجلة "العهد" لبضع شهور لقيت خلالها على أيدي صاحبيها من العسف أكثر مما لقيته في الكويت، فلم أتردد عن تقديم استقالتي، واتخاذ قراري بالهجرة من المنطقة نهائيا. لكن تكليف وزير المالية والنفط الشيخ عبد العزيز بن خليفة آل ثاني لي، بتأسيس مجلة تابعة لوزارته جعلني ارجىء موعد تنفيذ قراري بالهجرة الى أواخر عام ١٩٧٦ (وهذه تجربة أخرى سأرويها في كتاب أعمل على تأليفه وسيصدر في في مطلع الصيف المقبل بعون الله).
المهم، بعدما ختم جواز سفري بتأشيرة المغادرة من دول وامارات الخليج، وهاجرت الى بريطانيا، والحقت اولادي في احدى المدارس، فوجئت بعد أيام برسالة من مدير المدرسة يدعوني فيها لمقابلته للاستفسار عن جنسيات اولادي. ولما لبيت الدعوة في اليوم التالي، سألني المدير ان كان أولادي يحملون الجنسية نفسها التي أحملها أنا، فأجبته :
- نعم نحن عرب من سورية.
رفع المدير حاجبيه مستغربا ثم قال :- ولماذا يدّعي ابنك "الرجاء بالله" بأنه كويتي ؟. فكلما سألته المُدَرِّسة، من أي بلد أنت؟ يجيبها "أنا كويتي".
قلت للمدير، القضية انه ولد في الكويت، ولأنه امضى اربع سنوات من عمره في مجتمع كويتي، فانه يعتقد انه يحمل الجنسية الكويتية.
وضحكنا...
ولم أشرح للمدير أن من يولد على أرض الكويت لا يمكن ان يحمل جنسيتها حتى لو أمضى عمره فيها، ولم يكن له ولاء لسواها. لكن المدير لم يبخل عليَّ في ان يخبرني ان من يولد في بريطانيا، من أبوين يحملان أي جنسية من جنسيات العالم الأول، أوالثاني، أوالثالث، حتى لو

حتى لو كانت احدى الجنسيات العربية، فان القانون يمنحه فوراً الجنسية البريطانية، ويعطيه جواز سفر بريطاني، ويحق له جميع ما يحق للمولود في بريطانيا من أبويين بريطانيين.
فقلت للمدير مازحا :
- وهل تكون جنسية المولود درجة اولى ام ثانية ؟. رفع حاجبيه مرة ثانية، وارتسمت على وجهه علامات الحيرة والاستغراب، ولم يحاول ان يستفسر عما اعنيه بذلك حتى لا اتهمه بالغباء والجهل، وبأنه محدود المعلومات، لأنه لا يقرأ كثيراً.
القصة لم تنته، لأنها لم تكتمل فصولا بعد.. فالجزء الأخير يروي قصة شاب كويتي متزوج من عراقية تعيش في الكويت، أوفد في بعثة دراسية الى بريطانيا عام ١٩٧٦ لمدة عامين. التقيته في مدينة "بورموث" الساحلية الجنوبية، اذ بدأ دورة دراسية باللغة الانكليزية تستغرق ثلاثة أشهر، فكنا نلتقي يوميا في المعهد نفسه، ونمضي عطلة الأسبوع معا على شاطيء البحر. نمت الألفة بيننا، وتطورت زمالتنا المدرسية الى صداقة، فكان يبوح لي خلال لقاءاتنا ببعض همومه، وكانت أبرزها شعوره بالوحدة، واحساسه بالحاجة الى زوجته التي جاءت الى الكويت مع اسرتها العراقية، فتعارفا ونشأت بينهما قصة حب توجت بالزواج قبل أن يأتي الى بريطانيا بشهرين.
ولما اقترحت عليه ان يبعث في طلبها لتعيش معه خلال فترة بعثته التي ستمتد عامين، أجابني بأنه يفكر جدياً في ذلك، خاصة وان زوجته اخبرته في رسالة أنها حامل، لكن المشكلة التي تعترضه انها دون الثامنة عشرة، ولا تملك جواز سفر مستقل، وقدمت الى الكويت بجواز سفر والدتها. وزواجه منها لا يمنحها الجنسية الكويتية الا بعد فترة قد تقصر او تطول، لأنها رهن المزاجية الفردية، كما أنها لن تعطى جواز سفر عراقي قبل بلوغها الثامنة عشرة وهي ما تزال دونها بأشهر. ولم يبق امامه سوى ان يعود الى الكويت ليسجلها في جواز سفره، او يستحصل لها على وثيقة سفر كويتية مؤقتة.
باختصار، استطاع هذا الصديق الكويتي ان يسافر الى الكويت خلال عطلة أعياد الميلاد ورأس السنة، ويعود بصحبة زوجته، وبعد مكوثها معه بضعة أشهر أكملت فترة الحمل، وقبل موعد الولادة بأيام، نقلت الى المستشفى، وحين وضعت مولودها، منحته السلطات المختصة جواز سفر بريطاني، فكان - ربما - أول طفل من أب كويتي درجة أولى، وأم

عراقية بلا جواز سفر، يحمل الجنسية البريطانية.
ومثل هذا الحدث، هناك حالات كثيرة مماثلة لمواطنين ومواطنات عرب من مصر، وسورية، ولبنان، وحتى من فلسطين المحتلة، جاؤوا الى بريطانيا للدراسة، أو للبحث عن فرص عمل، وأنجب بعضهم بنيناً وبنات، اعطيت لهم الجنسية البريطانية فوراً،.
وليس ثمة ضرورة للتعليق، ولكن السؤال الذي يطرح بالحاح، هو هل كانت السلطات الكويتية تمنح الجنسية لأي زوجين عربيين انجبا طفلا في الكويت.. أو تمنحهما حق الاقامة والعمل دون شروط في أضعف الحالات ؟
الجواب القاطع..لا.. والأدلة كثيرة بعضها ورد في الفصول السابقة، وآخر هذه الأدلة حكاية ابني الذي ولد في الكويت وامضى اربع سنوات من عمره تحت سمائها، وظن أنه كويتي أصيل، فكان يصر على القول "أنا كويتي" كلما سأله أحد أقرانه عن اسم بلاده.
في يقيني ان السؤال سيبقى معلقاً يدور في الأذهان، حتى تصدر قوانين الجنسية في مختلف الأقطار العربية، لتوحد الانسان العربي في جنسية واحدة ترفع رأسه بين مختلف الجنسيات الأخرى. ولكن، ما دام بعض الحكام يعتبرون منح الجنسية لمواطن عربي من قطر غير قطرهم تشريفا وليس حقاً، فان مثل هذه القوانين التي تلغي كافة الفوارق بين مواطن عربي من قطر ما، ومواطن عربي من قطر آخر لن تصدر مطلقاً حتى تزول كافة الترسبات والعقد من العقل العربي الذي ينادي بالوحدة وإزالة الحدود الاقليمية، بالخطابات والشعارات، ويفعل العكس على صعيد المجالس التشريعية والتنفيذية، وفي المؤسسات و... الديوانيات.


الفصل الثامن

قبل ان يسدل الستار

انتهى الفصل الأخير، وأسدل الستار على مهزلة الجنسية وعقدتها الأزلية. بقي ان نقلب الصفحة وفي هذا الفصل أقسى الحقائق التي يشهد بها أهل الدار أنفسهم.

في التاسع والعشرين من شهر آب عام ١٩٧٦، جرى حل مجلس الأمة، وأوقف العمل بأحكام المواد (٥٦ فقرة، ١٠٧، ١٧٤، و ١٨١ من الدستور). بعد هذا الاجراء، رفع عدد من أعضاء المجلس مذكرة الى أمير الكويت، جملوا فيها الأسباب التي قيلت في تبرير تلك الخطوة. وقد جاء في المذكرة :

أولا - ان الآمال المعقودة على الدستور الذي مضى عليه قرابة ١٤ عاما

لم تتحقق .
ثانيا - ان الديموقراطية قد استغلت ، وجمدت أغلب التشريعات ، واتخذ من الدستور سبيلا لتحقيق المكاسب الشخصية ، وان الجهود بذلت في الهدم والتعويق ، وإثارة الأحقاد وتضليل الناس .
ثالثاً - ان الحرية قد استغلت من الذين لا وازع لهم من ايمان بالصالح الوطني فشوهوها وقلبوها الى فوضى تستهدف هدم القيم والمعتقدات .
رابعا - ان اطلاق الحرية للصحافة بلا ضوابط ، جعل من بعضها أدوات طيعة فى خدمة أغراض غريبة عن وطننا ، تعمل لافساد المجتمع ، وترويج الشائعات ، ونشر التفاهات ، وإثارة الفتن ، ونشر جو من الأرهاب الفكرى لاسكات كل صوت ينطق بالحق .

* * *

حول القضية نفسها صدرت بيانات مماثلة عن مختلف الهيئات الشعبية فى الكويت بمثل ، الاتحاد العام لعمال الكويت . رابطة الأدباء . جمعية المحامين . جمعية المعلمين الكويتية . الاتحاد الوطني لطلبة الكويت . نادي الاستقلال ، وجمعية الصحفيين .
وقد اعتبرت هذه البيانات وغيرها ان مجهودات النظام الحاكم بلغت حد النضج يوم التاسع والعشرين من آب ١٩٧٦ ، وأثمرت هذه المجهودات نتائج سلبية موجهة ضد الديموقراطية بصدور المرسوم الأميري الذي قضى بوقف العمل بالمواد الدستورية المذكورة آنفاً ، وكذلك بحل مجلس الأمة على أن يتولى الأمير ومجلس الوزراء ، جميع الأختصاصات المخولة لمجلس الأمة ، وعلى ان تصدر القوانين بمراسيم أميرية ، وعند الضرورة يجوز اصدارها بأوامر أميرية .
على صعيد آخر ، أصدر تجمع الأحرار الديموقراطيين وثيقة طرحت تساؤلات عديدة أبرزها :
"اذا كانت حرية المواطن ، ورفاهه ، وتقدمه ، هي أهداف النظام السياسي والاجتماعي والاقتصادي في دولة الكويت " .
"واذا كانت السيادة هي للأمة التي هي مصدر السلطات جميعاً " .
" واذا كانت القوانين والنظم هي من فعل ممثلي الشعب ، واذا كانت سيادة القانون هي الصورة المثالية لتقدم الشعب ورخاء افراده :
لذلك كله ،
فقد كنا نأمل ان تكون تجربتنا الديموقراطية الرائدة ، هي الأنموذج الأمثل لصورة المجتمع الجديد الذى يكون فيه الناس سواسية في الكرامة

والانسانية، وهم متساوون لدى القانون في الحقوق والواجبات، لا تمييز بينهم في ذلك بسبب الجنس، أو الأصل، أو اللغة، أو الدين "٠

* * *

هو الوتر نفسه الذي يشكو كل وافد عربي الى الكويت من نشاز أنغامه، يعزف عليه تجمع الأحرار الديموقراطيين الذين "يعملون" أعضاء في مجلس الأمة، لكنهم – وهذه حقيقة – يقولون ولا يفعلون٠

وللحكومة بعض العذر في اتخاذها تلك الاجراءات التي عطلت بعض مواد الدستور، وجمدت أعمال مجلس الأمة٠ وعذرها انها – بإرادة عليا – أرادت ان تضع جميع ممثلي الشعب عند تجربة جديدة تبلور حقيقة مواقفهم من زيفها، لتعاد صياغة القوانين والتشريعات على ضوء ما تفرزه هذه التجربة٠

وفى واقع الأمر، فان من الأمور المحيرة في هذا البلد: الفرق الشاسع بين سرعة التغيير الاجتماعي المنظم، والاتجاه الرسمي الموغل في المحافظة لحماية الخواص الداخلية في المؤسسات الادارية.

* * *

وحول قضايا الجنسية، وما يتفرع عنها من مشكلات يعاني منها أيضا "العرب الوافدون"، تطرح الأوساط المثقفة في الكويت تساؤلات جريئة: يعبر عنها بعض النخبة منهم في شكل دراسات ومحاضرات بعضها ينشر، وبعضها يشمله التعتيم الاعلامي لسبب أو لآخر٠

وللدكتور محمد الرميحي رأي معلن حول هذا الموضوع الذي يعتبر من اكثر القضايا إثارة لحساسية الكويتيين الذين تتحكم بهم عقدة "أنا كويتي"٠ خلاصة الرأي، سؤال حول ما يسمى بمشكلة الوافدين من العرب واستفسار عن حل لها؟٠

● ما هي حقوقهم في التعليم، والاسكان، والتجارة، والاقامة؟٠

● هل تم اتخاذ قرارات بهذا الشأن للمستقبل، باعتبار ان الوافدين يشكلون "قوة العمل" التي تلبي احتياجات الاقتصاد الكويتي؟٠

● هل اتخذت اجراءات تهدف تحقيق عنصر الاستقرار والديمومة لهم في الكويت، استهدافا لتزايد فعالياتهم وانتاجياتهم؟٠

● هل تم تحريك قانون الجنسية الحالي في سبيل منح الجنسية لمن توافرت فيهم شروط التجنس وذلك تحقيقاً لمبدأ استيعاب بعض فئات

قوة العمل المتخصصة، في عداد التجمع الكويتي ؟.

* * *

ليس ثمة إجابة على هذه التساؤلات ولا على سواها. والحيرة مقيمة في الرؤوس، والهجرة المعاكسة من الكويت تتزايد.. والشكوى باقية الى ان تحدث المعجزة التي لا يعرف أحد "ساعة الصفر" لها.

ولعل الحكم المركزي للدولة الحالية في الخليج، يعتمد على الشرعية القبلية، اذ تنص معظم الدساتير على ان الحكم في سلالة او عشيرة محددة، هو نوع الحكم الذي يتناسب عكسياً مع المطالب الشعبية للمشاركة الديموقراطية عملية تضع المصادر المتناقضة للسلطة الشرعية القبلية، والسلطة الشعبية في خط متصادم. ومن المنطقي الخروج بعد ذلك بمحصلة تحددها الظروف الاجتماعية، والاقتصادية، والموضوعية المحيطة.

لذلك فان مرحلة العمل الوطني والاجتماعي القادمة في مجتمعات الخليج، وفي مقدمتها المجتمع الكويتي، يجب ان تخضع لشعار "المادة الديموقراطية التمثيلية" لتحقيق المشاركة الأكبر والأعم في بناء وصياغة المجتمع الجديد، لدولة الكويت الحديثة، التي تتلاشى اقليميتها في المحيط القومي العربي.

ومثلما يتردد في اوساط الكويتيين المثقفين، فان سياسة التجنيس، يجب ان تقوم على اساس المساواة الكاملة في الحقوق والواجبات بين جميع من يحملون الجنسية الكويتية، فلا يعامل الكويتي بالتجنيس على اساس انه من درجة اقل من الكويتي بالتأسيس، وإلاّ انتفى الغرض مما تستهدفه السياسة السكانية أصلا.

فالتفرقة بين مواطن ومواطن، تجسيد للعنصرية والاقليمية، وهذه التفرقة بالتالي، لا تخلق شعور الولاء للوطن. ومواطن بلا ولاء كامل للوطن لا خير منه لهذا الوطن. ووطن لا ينشر مظلة المساواة على جميع الرعايا، لا خير منه للمواطنين.

إنه مأزق بالغ التعقيد، وفي الوقت نفسه شديد البساطة في الوصول الى حل عادل للوطن والمواطن، اذا صدقت العزيمة، وحسنت النوايا، وترجمت الشعارات الى قوانين وتشريعات فاعلة ونافذة.

* * *

وهامش آخر..

وهو أكثر حدة من سابقيه..

وهذا الهامش أتيحتْ لِيَ قراءته في لندن عندما استحدثت جريدة "العرب" صفحة أسبوعية باسم "هايد بارك العرب" يقول فيها القراء ما يشاؤون، ويريحون أفكارهم وضمائرهم من أثقال وهموم لا يجدون متنفساً لها، على غرار "ركن الخطباء" في حديقة لندن الشهيرة عالميا "هايد بارك كورنر" التي يتجمهر فيها مختلف الأعراق والجنسيات ويلقون خطاباتهم في حماية رجال الأمن الذين يمنعون كل من يحاول أن يشوه معنى حرية الرأي حتى لو كان هذا الرأي نقداً مباشراً موجهاً الى نظام الحكم الريطاني.

وفي هذه الصفحة من جريدة "العرب" التي تصدر في لندن، قرأت رسالة لقاريء كويتي لم يشأ أن يذكر اسمه، أستخلِصُ منها أبرز ما جاء فيها من نقاط تحت عنوان "عن الكويت أحدثكم":

"أنا كويتي أباً عن جد، ولذلك فأنا أتحمّل وِزْرَ هذه الجنسية.. لأنني طمحت بوطن حر، فاذا هو ذليل بحكامه وأزلامه، واذا هو مستعبد بالدينار والشهوات".

"الكويت باختصار مبتلاة بزمرة من حكامها زحفوا اليها هرباً من أواسط الجزيرة ليتحكموا في مصائر أبناء الكويت الأصائل ويلهفوا ما هب ودب من خيراته".

وتعقيباً على هذه الفقرة، يجب ان نوضح، متسائلين:

اليست الكويت امتداداً لهذه الجزيرة من جهة، واتصالا ببادية الشام من جهة اخرى؟. ثم أليس حكام الكويت من قبيلة عربية تربطها صلة الرحم بأبناء جلدتها من قِمَمِ ظفار وانتهاء بالسواحل السورية؟. واذا كانوا كذلك، فلماذا يدعي القاريء انهم جاؤوا الى الكويت ليحكموا أبناءَها "الأصائل" -!!- ويستولوا على الخيرات؟.

إنها جرثومة العنصرية تمكنت من بسطاء الناس بسبب فساد التربية، وفساد أساليب الحكم وإقامة الوطن الصحيح، والمواطن المعافى.

ويستطرد القاريء - الكاتب:

"أتدري يا أخي العربي ما هي آخر مفاخر النظام المهتريء في الكويت، وعما تفتقت عنه عبقريات النظام المفكرة؟. تصور أنهم ينوون باذن الله وحمده، وباعتماد على المواطن الغلبان وعلى حساب سعادته وتطوره ولحاقه بالتقدم الحضاري الحقيقي، بناء مدينة كاملة على غرار مدينة والت ديزني لاند في أميركا، وبكلفة ٨٠٠ مليون دولار لتضم ١٩ حديقة وثلاث قبب لتظليل الحدائق، وقد بنوا من إهرامات شامخة

لتضليل شعبهم، وطرد الهم القرمي عن تفكيره، وصرفه عن واجبه النضالى نحو أمته العربية . ألم يكن أجدر بمثل هذه الحكومة التي تنضح غروراً وعروبة مزيفة، أن تتوجه بقسم من هذه الملايين، وغيرها مما سيصرف هدايا لزيارة الملكة أليزابيث على الفلسطينيين الذين تسببت بريطانيا في نكبتهم" . ؟

والرسالة حافلة بأشياء وتفاصيل كثيرة.

* * *

هوامش أخرى تتناول الجوانب الاقتصادية، ومسألة انتماء الكويت القومى الى الأسرة العربية . وإحكام طوق العزلة على الكويت بالسيطرة المحكمة التى فرضتها طبقة التجار وأصحاب البنوك، والمضاربين في الأسهم والبورصات العالمية .

وجميع هذه الهوامش مأخوذة عن مواطنين كويتيين، وهي تعبر عن أن الشعور بالنقمة متوغل في نفوس بعض الكويتيين أنفسهم .

وفى الصفحات التالية أثبت ما تيسر لي الوقوع عليه من هوامش، خلال الفترة التى تعرقل فيها مشروع نشر هذا الكتاب .

"ان هناك اسباباً سياسية محضة تدعو الى زيادة عدد سكان الكويت، لأن التركيب السكاني على ما هو عليه، واستمراره على النمط نفسه ربما يؤدى الى حدوث خلل كبير في التوازن السياسي الداخلي باعتبار ان ظاهرة عدم الاستقرار التي يتسم بها المجتمع غير الكويتي ليست مما يقوى روح الولاء بين أفراد المجتمع تجاه البلد الذي يعيشون فيه، دون ان تتاح لهم الفرصة للاندماج فيه وتحمل ما يمليه هذا الاندماج من واجبات وطنية وتبعات اجتماعية .

● لأسباب سياسية محضة بدأت منذ عام ١٩٦١ أي عام الاستقلال حركة قوية لتجنيس البدو ما زالت البلاد تدفع ثمنها حتى هذا العام، وللأعوام مقبلة . لقد ترتب على عملية تجنيس البدو انخفاض مستوى التعليم للسكان، والحاجة الماسة لزيادة عدد الوافدين من مختلف الاختصاصات لخدمة الزيادة الحاصلة في حقول التعليم، والصحة والاسكان، والخدمات البلدية المختلفة، وغير ذلك من الخدمات المتنوعة . ونتج عن ذلك كله ان بقيت نسبة الكويتيين من أصل المجموع الكلي للسكان لا تتجاوز ٤٧٪ خلافا لما كانت عليه في عام ١٩٦٥، وبالتالي زيادة مساهمة القوة العاملة الكويتية في قوة العمل الكلية في البلاد" .

واستطراداً هنا هامش آخر :

"ان نزعة الربح السائدة التي يروجها هؤلاء تحت شعار الاقتصاد الحر، لا شك ستؤدي بالمجتمع الكويتي الى مزالق خطرة جدا. ان مجتمعا جديداً أخذ ينفرز (خيطان، وصيهد العوازم، والرقة، والعمرية، والصباحية، والفحيحيل، والفنطاس، والجهراء) وغيرها من المناطق المنسية. وان جيلا جديداً بدأ ينشأ في (الضاحية، والشامية، والقبلة، والشويخ) وغيرها من المناطق المحظية، وهو على غير استعداد لتقبل ذلك، لأن هذا الاسلوب اصبح يؤثر تأثيراً مباشراً على الحاجات الاجتماعية لعموم المواطنين. فليذهب الاقتصاد الحر الى الجحيم اذا كان يزيد الغني غنى وثراء وتخمة ويزيد الفقير فقراً وحرماناً وشظفاً".

"هذه وضعية اقتصادية لا تحقق اي نوع من العدالة الاجتماعية، بل تكرس المزيد من الطبقية والتقسيم الاجتماعي. ومن الجدير بالذكر انها تصطدم اصطداماً مباشرا مع التشريعات الاقتصادية الاسلامية. فمن يقرأ المناهج التي اتبعها أبو بكر وعمر وعلي، ومواقفهم من ملكية الأرض والماء، وتسيير الأرزاق، ومن يركز على منهج عمر في التشريع الاقتصادي الاسلامي، يدرك ان الاسلام نظمه اجتماعية وحكمه جماعي، واتجاهاته في كل التشريعات لا تتسع على الاطلاق للتفكير الفردي الربحي الذي ينادي به البرامكة الجدد".

"غير ان طبقة البرامكة الجدد الذين يصرون على فكرة الاقتصاد الحر في الكويت يفهمون فقط متطلبات حرية التجارة. أما سائر الحريات الأخرى، أما الوعاء السياسي لفكرة الاقتصاد الحر، فانهم في داخل مجالسهم وأروقتهم يرفضونه. والدليل على ذلك موقفهم من انتكاس الديموقراطية في الكويت في أغسطس ١٩٧٦. ان تركيب غرفة التجارة الطبقي والاجتماعي العام ظل كما هو منذ انشائها رغم الكثير من التبدلات الاجتماعية والطبقية في الكويت".

* * *

هذه الفئة الضاربة النفوذ في المجتمع الكويتي وفي النظام نفسه لا تمثل أكثر من ١٥عائلة، ومع ذلك تتحكم بكل الاستثمار الخاص خارج الكويت والبالغ، بصورة تقريبية، ستة آلاف مليون دولار، هذا عدا ما يملكونه من وكالات وعقارات واسهم داخل الكويت. ان قيمة الأسهم المطروحة مثلا في البورصة الكويتية في نهاية مارس ١٩٧٧ بلغت ما يقارب الألفي مليون دينار كويتي. وهذه الفئة القليلة من البرامكة

تتحكم في معظمها " .
وهامش حول مفهوم وثيقة تجمع الأحرار الديموقراطيين للوحدة العربية .
جاء فيه :
"ان الوحدة العربية ليست هي وحدة شعارات او هي وحدة شكل معين ، وانما هي - في نظر التجمع - وحدة واقع . وكذلك فان التجمع يشجب كافة المواقف الانعزالية او الأقليمية ومطالب المواطنين جميعا أن يستشعروا بمسؤولياتهم القومية ، وان يسهموا بقدر فعال لازالة كل رواسب العزلة والانغلاق ، وان يكونوا أكثر اندماجاً وتفاعلا مع الأخوة العرب في داخل الكويت أو في خارجها . وترتيباً على ذلك فان التجمع يسأل كافة المواطنين المقيمين في الكويت ان يعملوا وباخلاص على التخلي عن نزعاتهم الاقليمية وأن يكونوا أكثر انفتاحاً وتعاطفا مع أخوتهم العرب بحيث تبرز صورة هذا الانفتاح والتعاطف في السلوك العام للمواطنين بما يشف عن رغبة صادقة في الاندماج والتزاوج والمشاركة في العمل ، وفي توثيق عرى الصداقة والمحبة فيما بين الكويتيين وأشقائهم العرب ، وتقديم العون والمساعدة لهم ، وابراز كافة مظاهر العزة والتكريم بما يشعر الأخوة العرب بأنهم يعيشون حقاً في بلدهم وبين أهلهم . ولعلها سعادة كبيرة تغمر قلب كل عربي ان يجد نفسه في كل ديوانية يحظى بالترحيب والتكريم ، ويشارك أبناء البلاد الحديث في كل ما يخصه ويخصهم . وان يجد مدارس الكويت فتحت أبوابها لأبنائه في كافة المراحل ، وان يكون التعليم الالزامي قد طبق على أبناء الدول العربية الشقيقة ، وان تكون نظم التوظيف العامة والخاصة قد ساوت في الحقوق والواجبات فيما بين المواطنين الكويتيين والأخوة العرب . وكذلك فان مناطق السكن النموذجية يصرح فيه للأشقاء العرب بالسكنى كما يصرح لهم بحق التملك ، كما هو مصرح حالياً للكويتيين ، وان يتملكوا في أي أرض عربية ، وان يكون لهم حق اكتساب الجنسية الكويتية وفق أحكام القانون ، ووفق شروط مدة الاقامة بأقل مما هو منصوص عليه في القوانين الحالية ..
ان كل هذه المبادرات الخيرة تعبر عن أصالة الشعور القومي وجديته وتؤكد للعالم أجمع بأن الشعب العربي في الكويت قد بلغ مرتبة الوعي والنضج السياسي والاحساس بالمسؤولية القومية ، مما جعله يرتفع بذاته ويتمرد على تطلعاته الآنية المؤقتة ليدخل مرحلة الرؤية المستقبلية الواضحة التي تتميز بالعفة والطهارة وصدق الايمان بالشعور القومي

الذي أقل مظاهره أصالة السلوك...
وأن يكون موقف الانفتاح والتعاطف مطلوبا بين الكويتيين وأشقائهم العرب من جهة، فهو مطلوب أيضا من المواطنين العرب المقيمين باختلاف جنسياتهم من جهة أخرى، لأن في هذا الانفتاح والتعاطف بين أبناء الشعب العربي الواحد تغرس بذرة الوحدة العربية التي تسقى بروح الرغبة الصادقة في تمتين العلاقات الانسانية بين أبناء الشعب العربي الواحد، والتي تنمو بوعي الجماهير وادراكهم بأنه في ظل دولة الوحدة تتحقق أحلامهم الكبيرة في القوة والعزة والرخاء والتقدم".
ولعل النقطة المهمة في البيان جاءت في المقطع التالي :
ان هذه الروحية الجديدة في السلوك الانساني في حياة المواطن اليومية مطلوبة ايضا من قبل الدولة، بحيث تكون تصرفاتها ومواقفها تجاه الأخوة العرب تتفق والرغبة الصادقة في التعايش العربي السليم القائم على أسس المحبة والتكريم والأحترام المتبادل.
ومتى كان للترابط الانساني بين ابناء الأمة العربية في مجال التعايش اليومي - على مستوى الدولة والأفراد على حد سواء - له أهميته القصوى في التمهيد والاعداد لدولة الوحدة، فان التجمع لا يغيب عن وعيه أيضاً مدى أهمية المبادرات الطيبة لتوثيق الروابط الثقافية والتعليمية والاقتصادية والاجتماعية والعسكرية فيما بين الدول العربية الشقيقة، وذلك حتى تكون هذه العلاقات الودية المتبادلة هي أساس سليم يمهد لقيام دولة الوحدة من خلال الدور التجريبي للارتباطات الجماعية، أو الثنائية في مجالات السياسة الخارجية والتعليم، والثقافة والاقتصاد، والدفاع وتوحيد القوانين، وتوثيق العلاقات الفردية بين أبناء الشعب العربي الواحد، ضمن إعدادٍ واعٍ وسليم يحول معه الوقوع في الخطأ الذي قد يرتب ردود فعل عكسية تؤدي الى شعور عام بالملل من الوحدة والحذر منها، الأمر الذي يؤدي في النهاية الى تكريس حالة التجزئة والتمزق.
لذلك كله يرى التجمع وجود التزام الجدية بكافة الارتباطات الجماعية او الثنائية المتبادلة بين الدول العربية المختلفة بحيث تكون هذه الارتباطات مستهدفة بحد ذاتها، لما تحويه من معان خيرة، وليست ارتباطات فرضتها قواعد المجاملة والنفاق السياسي ليكون مكانها الأخير الأدراج المعتمة".
لعل الدرس الثاني شارف على الانتهاء ... ولعله يجدر بنا القاء بعض

الاضاءات ، قبل اسدال الستار على الفصل الأخير . ولعل الاضاءات الاخيرة تكشف ملامح التحولات الجديدة ، والمتغيرات التي طرأت على الكويت ، منذ بداية العهد الجديد الذي سيمهره الشيخ جابر الأحمد الجابر الصباح بطابعه وشخصيته ، بعدما حمل الرقم ١٣ في تسلسل الأمراء الذين حكموا الكويت .

اذ عندما فرغت من تاليف هذا الكتاب ، كان جابر الأحمد ما يزال ولياً للعهد ، وعندما تيسرت ظروف طباعته ونشره ، كان جابر الأحمد قد صار أميراً على الكويت ..

فما الذي تغير ؟..

هل أقر العهد الجديد قانون الجنسية ؟..

هل زالت الفوارق الطبقية ، والتصنيفات بين الكويتي والكويتي من جهة ، وبين الكويتي والعربي من جهة ثانية ؟

هل تساوت الحقوق والواجبات على الجميع أمام القانون والدستور ؟

وهل هدمت السدود التي تصدت للديموقراطية ، وعادت الحياة البرلمانية الى مجراها الطبيعي على أسس جديدة مدروسة ، ومبنية على قواعـد قوميـة واضحة ؟ .. وهل .. وهل .. وهل ، وعشرات علامات استفهامية أخرى لا نجيز لأنفسنا الاجابة عليها ، لبعدنا جغرافياً عن الموقع والميدان ، ولا نملك الحقائق التي تدحض المتناقضات التي نتلقاها عبر أجهزة الاعلام الكويتية ، وفي مقدمتها صحافتها .

وكان لا بد من الوقوف على الحقيقة ، أو على بعضها من مصادر رسمية ، اذ ما تزال العقبات موجودة امام المواطن العربي ــ أي مواطن ــ يرغب بالحصول على تأشيرة دخول الى الكويت ، للزيارة ، أو للعمل أو لاستطلاع الأحوال على الطبيعة .

ولم يكن أمامي سوى الاتصال بالملحقية الصحفية في سفارة الكويت بلندن التي يتولى مسؤوليتها حمد السعيدان ، وهو شاب كويتي كيس ومهذب ، وعلى خلق ديبلوماسي ملحوظ ، للحصول على معلومات كافية حول المنجزات (على الصعيدين المحلي والعربي) التي تمت في عهد الشيخ جابر الأحمد منذ توليه سلطات الحكم .. ووعدني الملحق الصحفي الكويتي خيراً ..

ومضى اسبوعان على ذلك الاتصال الهاتفي ، ولم أتلق شيئاً . عاودت الاتصال ثانية للاستفسار عما تم تهيئته من معلومات تجيب على السؤال ، وكان الجواب بأنه بعث برسالة الى المسؤولين في الكويت بصدد ذلك ، وانه ينتظر الرد ليوافيني به . واستطرد قائلا :

ــ غداً سأرسل اليك بالبريد ما هو متوفر لدي ، وأرجو أن تتجمل بالصبر قليلا ريثما يصل الجواب من المسؤولين . وبعد يومين ، وصلني ــ فعلا ــ بالبريد العدد الخاص من نشرة (KUWAIT) التي تصدر باللغة الانجليزية في لندن مع

بعض الأعداد القديمة ، مرفقة بالرسالة التالي نصها :

« ص ح/٤٩ »
٢٥ يونيو ١٩٧٩
السيد فاروق منجونه المحترم
تحية طيبة وبعد ،

بالاشارة الى مكالمتكم الهاتفية حول المنجزات التي تمت في عهد صاحب السمو الشيخ جابر الأحمد الصباح أمير الكويت الحالي ، نرفق لكم الأعداد الصادرة من سفارتنا واسمها « KUWAIT » وهي نشرة شهرية تتضمن ملخصاً شهرياً لأهم المنجزات اعتباراً من وفاة المغفور له الأمير السابق الشيخ صباح السالم الصباح . هذا وسنوافيكم بما يستجد بهذا الشأن .

مع أطيب التمنيات

الملحق الصحفي
حمد السعيدان

وحتى مساء اليوم ، الثاني والعشرين من أغسطس ــ آب ــ عام ١٩٧٩ ، أي بعد مرور شهرين على اتصالي بالملحق الصحفي الكويتي ، لم يصل ــ على ما يبدو ــ جواب المسؤولين في الكويت ، لانني لم أتلق شيئاً من الملحقية الصحفية في السفارة الكويتية ، ولم اسمع صوت السيد حمد السعيدان . وقد قارب ان ينقضي عام على العهد الجديد ، دون ان نسمع خبراً عن إنجازات او تغييرات جاءت بحلول لبعض القضايا المصيرية التي ما تزال تتفاعل في الحياة الكويتية ، وفي مقدمتها :

● قانون الجنسية الجديد الذي لم يصدر ، لأن اللجان المختصة ما تزال عاكفة على دراسته كما تقول الصحف الكويتية .

● عدم عودة الحياة البرلمانية على اسس ديموقراطية سليمة ، وعد المسؤولون الكويتيون بتحقيقها في عهد المرحوم الشيخ صباح السالم .

● مراوحة الأوضاع السابقة ، التي أتينا على ذكرها ، والقاء الضوء عليها ، وتحليلها في الفصول السابقة ، وفي مقدمتها ، التفرقة العنصرية ، والطبقية ، والقيود القاسية المضروبة حول العرب المقيمين في الكويت ، والسدود القائمة في وجوه الراغبين بدخول الكويت ، والصعوبات التي تبلغ درجة الاستحالة في الحصول على تأشيرات عمل ، أو زيارة أو سياحة ، في الوقت الذي تشرع الكويت « بوابات » سورها أمام كل من يحمل جواز سفر أجنبي ، انجليزياً ، أو أميركياً ، أو هندياً ، أو حتى كورياً ، ولا ننسى طبعاً ، أن للايرانيين الذين يعيشون في الكويت وضعاً خاصاً مميزاً ، وهذا الوضع ييسر للايرانيين سبل الدخول ، والاقامة والعمل في حرية يحسدهم عليها الكويتي نفسه ، الذي لم ينل شرف

الحصول على الجنسية ، ولم تعترف به القوانين رغم أن الدستور اعترف بانتمائه الى الكويت ، لأنه ولد ، ونشأ ، وعاش ، ودرس ، وتزوج ؛ وأنجب ، ومات على ارض الكويت !!

تلك هي الحقائق التي نعرفها ، ولمسناها خلال التجربة الذاتية التي عشتها في الكويت خلال عهد المرحوم صباح السالم حتى ١٩٧٥ .

فماذا تقول نشرة السفارة الكويتية في لندن عن العهد الجديد ؟ .

لنقلب الصفحة ، ولنتابع الرحلة .

الفصل التاسع

الشوق في نهاية الرحلة

« كيف تبدو بغداد ، البصرة ، دمشق ، وكأنها حلم في جنة قرآنية .. هنا ، لا يكون للانسان سوى رغبة واحدة وهي أن يعود إلى شرقه ، يبني ، أو يـزرع الصحراء ببساطة وحمـاس ، ويقـول .. هذه هي بلادي » .

من رواية
سميرة المانع
« الثنائية اللندنية »

★ ★ ★

« لنجلِسْ على الأرض .. ولنرْوِ الحكايات الحزينة عن موت الملوك »

وليم شكسبير
من مسرحية ريتشارد الثاني

بوفاة الشيخ صباح السالم الصباح ، الأمير الثاني عشر للكويت ؛ التي كانت « مشيخة » ؛ فتحولت الى « امارة » ؛ ثم صارت « دولة » معترفاً بها من هيئة الامم المتحدة ؛ وكافة المنظمات الدولية ، بعد انضمامها الى جامعة الدول العربية . يمكن القول ، ان علامة فارقة طبعت الفترة التي حكم خلالها ، ذلك أن عهده ، اعتبر عهد انتقال الكويت من بداية الانطلاقة الاستقلالية عن الحماية البريطانية ؛ الى ترسيخ معنى الاستقلال ومفاهيمه ، وبالتالي للمضي في طريق التحول المتطور نحو آفاق الديموقراطية ، وبناء معالم الحضارة الحديثة .

بوفاة الشيخ صباح السالم الصباح ، انعقد مجلس الوزراء الكويتي في جلسة طارئة يوم الحادي والثلاثين من ديسمبر ـ كانون الأول ١٩٧٨ ، ليعلن اختيار ولي العهد ، الشيخ جابر الأحمد الجابر الصباح ؛ أميراً على الكويت ، وليغدو بعد ساعات من دفن الأمير الثاني عشر للكويت ، الأمير الثالث عشر لها .

مات الأمير ... عاش الأمير !

فلنجلس معاً .. ولنرو الحكايات الحزينة عن موت الملوك ـ كما يقـول شكسبير ـ .

واذا كان ثمة مظهر من مظاهر الحزن ، فان هذا المظهر لم يستغرق سوى ساعات ، هي المدة التي تم فيها تشييع جثمان الأمير الراحل الى جوار ربه ، لتبدأ مظاهر السعادة والأمل بمستقبل أفضل ، بتولي الأمير الجديـد سلطاتـه ، وصلاحياته ، ومسؤولياته .

* * *

من هو صباح السالم الصباح ؟...

كان من السهولة أمام الأمير الثاني عشر أن ينتقل بالكويت الى عصر « الانفاق السريع » غير المحدود ، وبناء الثروات الشخصية من الايرادات الخيالية التي يدرها النفط . والبيانات التسجيلية الرسمية تقول : ان هذه النظرة كانت غير واردة في مبادىء الشيخ صباح السالم ، لأنه ـ كما تقول هذه البيانات ـ وضع نصب عينيه مصالح شعبه بالدرجة الاولى ، فتصرف بحرص لا تنقصه الحكمة ، فهو الذي وافق على تحديد كميات انتاج النفط ، بعدما عرف أن النفط هو مصدر البناء الوحيد لمستقبل دولة الكويت ، وسبب رفاهية شعبها .

وان الكويت في فترة حكم الشيخ صباح السالم ، غدت مثالا للتطور بين شعوب دول العالم الثالث ، فقد انتشرت العدالة الاجتماعية ، وعدالة توزيع الثروة على الكويتيين ، واتخذت خلال عهده خطوة هامة في مجالات توزيع السلطـات السياسية ، وهي خطوة استغرقت قروناً من دول أوروبا لتتمكن من تنفيذ هذه الخطوة !!.. وقد تحققت للكويت في سنوات قليلة ، رغم أجواء عدم الاستقرار ، والرياح السياسية المتقلبة التي أخذت تعصف سياسياً في منطقـة الشرق الأوسط ، والتي كان التحدي الاسرائيلي أول أسبابها ، بعدما تم زرع الدولة الصهيونية في مكان القلب من العالم العربي .

ولقد أعار الأمير الراحل نوعية الحياة لشعب الكويت ، كبير اهتمامه ، فالى جانب توفير الرفاهية المادية ، كان التركيز على دعم النشاطات الرياضية ، وخاصة في مجال كرة القدم ، وكرة السلة !..

* * *

نعم ـ هكذا تقول النشرة الرسمية ـ عمت الرفاهية ، وانصب الاهتمام على كرة القدم . لنستطرد في سرد الحكايات الحزينة عن موت الأمير ..

صباح السالم الصباح ، هو الابن الرابع لشيخ الكويت ، « سالم بن مبارك » الذي قاد الكويتيين الى النصر في معركة « الجهراء » عام ١٩٢٠ ، ليحقق استقلال الكويت عن المملكة العربية السعودية (...) !!.

تقول « سيرة حياته » التي اختصرتها ، نشرة « KUWAIT » ان الشيخ صباح ،

كان شغوفاً بالخيول ، وبالدراسات القرآنية ، واللغة العربية وآدابها ».(!!!)
(ملاحظة : كان رحمه الله لا يستطيع ضبط أواخر الكلمات عندما يلقي كلمته التقليدية في بداية الدورة التشريعية لمجلس الأمة ، تماماً كرئيس المجلس خالد صالح الغنيم) . بدأ حياته العامة عام ١٩٣٨ ، وكان لا يتجاوز الثالثة والعشرين من عمره بانشاء ادارة الشرطة التي ظل رئيساً لها حتى عام ١٩٥٩ ، ثم أصبح وزيراً للصحة ، وبعدئذ تولى وزارة الخارجية ، وحمل حقيبتها في أول وزارة شكلت بعد الاستقلال عن الحماية البريطانية عام ١٩٦١ .

وفي عام ١٩٦٢ تم اختياره ولياً للعهد ، وكلف برئاسة اول وزارة ، الى أن خلف شقيقه الشيخ عبد الله السالم الصباح وتولى سلطاته كأمير عام ١٩٦٥ ، حتى اختاره الله الى جواره ، في ذلك اليوم الذي لم تشهد فيه الكويت يوماً حزيناً ، الا يوم تشييع شقيقه « ابو الاستقلال » .

* * *

مات الأمير ، عاش الأمير ...

حتى اللحظة التي نودي فيها بالشيخ جابر الأحمد الجابر الصباح أميراً على الكويت ، يحمل الرقم الثالث عشر ، كان جابر الأحمد ولياً للعهد ، ورئيساً لمجلس الوزراء منذ عام ١٩٦٦ ، حكم خلاله الكويت من موقع قوي ، ونفذ خطه السياسي ، وبرامج حكوماته تنفيذاً دقيقاً .

فرغم كونه ولياً للعهد ورئيساً للوزراء ، في عهد صباح السالم ، وهذا يعني انه « الرجل الثاني » في الدولة ، الا أن حقيقة الدور الذي لعبه سياسيا ، واقتصاديا ، واجتماعيا ، أكدت أنه هو الرجل الأول والقوي في الدولة اذ أنه بدأ حياته السياسية في سن مبكرة ، ولم يكن يتجاوز الواحدة والعشرين عندما تولى رئاسة قوات الأمن الداخلي واستمر في هذا المنصب عشر سنوات ، نظم خلالها كوادر الشرطة ، والمخابرات ، والفروع الاخرى التي لها ارتباط مباشر بأمن الدولة . بعدئذ ، تمرس في ادارة شؤون البلاد الاقتصادية ؛ بتوليه وزراة المالية ، واستمر حتى كلف بتشكيل أول وزارة عام ١٩٦٦ ليبدأ — كرئيس للوزراء — مرحلة جديدة من مراحل الحكم ، ولينفذ برامجه ، وأسلوبه في الحكم ، وقد شهد له بأنه رجل دولة من طراز متفرد في القوة والحزم ؛ يعرف ما يريد ؛ ويتقن ادارة الدفة ، فاطلق عليه لقب « النوخذة » وهي كلمة خليجية تعني قبطان السفينة وربانها .

إن جابر الأحمد الجابر الصباح ، واحد من أبرز شيوخ الكويت في حدة ذكائه ، حتى قيل عن عينيه ، أنهما كعيني « صقر » تمكنانه من الرؤية الى مسافات بعيدة ، حتى يكاد يستشف ما بعد الأفق .

وهو إن حمل الرقم « ١٣ » في سلسلة الشيوخ الذين حكموا الكويت ، وهو رقم كما يقال مشؤوماً ... إلا أن الأمل معقود عليه في ان يقلب هذا المفهوم ، ويجعل من

الرقم « ١٣ » فأل خير ، وبركة يشمل المحيطين المحلي ، والعربي . بمعنى انه سوف يعيد الى الكويت وجهها العربي الأصيل الذي شوهته رياح خارجية تحكمت في الكويت ، وجعلتها رغم مظاهر الانفتاح على الأمة العربية ، ومظاهر التقارب مع الشقيقات العربيات وفي مقدمتها العراق ، محكومة ضمن اطار العزلة الاقليمية المرفوضة جماهيرياً من منطلق المفهوم القومي العربي .

« فاذا كانت المادة تلعب دورها في حياة الناس منذ القدم ، فان نظريات الفلاسفة ترجع سبب تدهور الدول بعد ان تشتد وتنمو ، الى التأثير المادي الذي يخلفه الاستقرار والرخاء ، فيتحول الى استرخاء » هذا ما يقرره افلاطون ، اذ بعد ان تبني الدول نفسها بجد وعزيمة ، وبعد ان تصل الى الذروة ، يظهر جيل آخر لا يملك مميزات الجيل السابق نفسها ، فتصبح الملكية وحب التملك « فوق كل شيء »، وبالتالي يهمل الانسان نفسه ، ولايبقى ثمة انسجام بين حق نفسه وأهله عليه ... ورغبته في جمع المال . وهذا ما سماه النظام « البلوتوقراطي » وهي ظروف يبالغ فيها الناس في جمع الثروة حتى لو كانت عن طريق الظلم ، مما يولد الحقد في النفوس ، ويؤدي الى تفكك المجتمع ، وانهيار الترابط الاسري .

وهذه النقطة الحساسة هي نفسها التي ركز عليها الشيخ جابر الأحمد في بيانه التاريخي عندما كان ولياً للعهد ، وقد أشرنا اليه ، وقمنا بتحليله في فصل سابق ، وكان أبرز ما تضمنه البيان ، تحذيره من مظاهر التفسخ والانحلال التي تقود الشعب الكويتي الى حافة الانهيار .

والآن ، بعد تولي الشيخ جابر الأحمد سلطاته كأمير للكويت ، نلاحظ دعوة جان جاك روسو الى نبذ المدنية الحديثة على ما فيها من زيف ، لأنها جاءت الى الانسان بويلات كثيرة ، ونقارنها بمضمون البيان التاريخي الذي كان جابر الأحمد القاه في احدى جلسات مجلس الأمة ، ودعا فيه الى السير في نهج يبعد الكويت عن حافة التفسخ المؤدي الى انهيار الأمة ، وتقويض أركان الدولة ، من جراء الظروف التي هيأت للبعض فرص « الحصول على المال ، حلاله وحرامه » فلم يعد يشغلهم سوى جمع المال وتكديسه ضاربين عرض الحائط بكل المثل ، والقيم والعادات الاصيلة ، فكان ذلك سبباً وجيهاً لظهور حالة التفكك الاسري ، خاصة وان الكويت أخذت تعاني من الصراعات النفسية والاجتماعية ، بسبب انها استقطبت منذ ظهور النفط الى اليوم ما يربو على مائة جنسية ، يتباين أصحابها بتنافر التقاليد ، والأعراف ، والطبائع والثقافات .

وبالنسبة للمجتمع الكويتي ، فرغم تأثره بهذه الرياح الوافدة ، الا ان بعض أفراده وشرائحه استطاع الحفاظ على الموروثات من الطبائع الحميدة ، ولكن تحت وطأة المادة ، والانصراف الى جمع المال ، لم يتمكن جميع الكويتيين من المحافظة على الصفاء العربي والاصالة العربية .

ومن أسباب الامراض الاجتماعية التي بدأت تنخر جسم المجتمع الكويتي ،

الاحتكاك الذي حدث بين أهل الكويت ، وشعوب الدول الأخرى ، وبالأخص الدول الاوروبية ، اذ بدأ « التقليد ». والفكرة هنا تقوم على أساس ان العالم الغربي متقدم من النواحي العلمية ، وحتى في التعامل الانساني ، وهذا صحيح الى درجة بعيدة ، اذ يؤكده رأي الامام محمد عبده القائل « ذهبت الى بلاد الفرنجة فرأيت الاسلام ولم أر المسلمين ، وجئت الى ديار الاسلام فوجدت المسلمين ، ولم أجد الاسلام ». على ان بعض الكويتيين بالغ في الأخذ بهذه المظاهر الغربية (أي بقشورها)، الأمر الذي أثر على العادات والقيم العربية والاسلامية فشوهها .

كل ذلك ، وسواه من النقاط والاضاءات التي يلمح اليها الكويتيون ، وفي مقدمتهم الجيل الجديد المثقف المتعلم ... تناوله الشيخ جابر الأحمد في بيانه ودعا ــ عندما كان وليا للعهد ــ الى اجراء جراحة عاجلة لاجتثاثه من الجذور كي تسترد الكويت وجهها العربي المشرق .

واليوم ، جابر الأحمد ، أميراً في سدة الحكم ، والمقاليد جميعها في يديه ليترجم بيانه التاريخي عملياً ، وليجسده أفعالا ومنجزات إيجابية تكون ــ بالدرجة الأولى ــ في مصلحة الانسان في الكويت ، كويتياً أصيلا ، أو بيسرياً ... لا فرق بالدرجات ، ولا تفرقة بين العربي والكويتي .

إنه درس جديد ، وأمثولة يستطيع جابر الأحمد ان يبدأ تطبيقها، ليعود الى الكويت نقاؤها ، وصفاؤها ، واصالتها العربية في عهده الذي يريده كل كويتي أصيل في عروبته عهداً يبني الوطن الأمثل للأجيال المقبلة .

* * *

وينتهي الدرس الثاني ... ويسدل الستار ...

وأغادر الكويت الى قطر ، لأبدأ درساً جديداً في دروس تجربتي كعربي في جزء آخر من أجزاء الوطن العربي المترامي بأقطاره من المحيط الى ... الخليج .

أغادر الكويت الى قطر ثم الى أين ؟..

أهاجر الى لندن ، وأبدأ أرقب سير الأزمان ، مثلي كمثل البدوي الذي فرش عباءته ليصلي فوق الرمل ، فجاءته ريح حملته ، وحطته بعيداً عن حضرة محبوبه الوطن الذي حمله ذكرى في حناياه بين الضلوع ، وأخذ يتمنى . ويحلم بالعودة الى الوطن الأمثل حيث « لا يكون للانسان سوى رغبة واحدة ، وهي ان يعود الى شرقه ، يبني ... أو يزرع الصحراء ببساطة وحماس ، ويقول ... هذه هي بلادي ... هذه هي بلادي ».

جابر الأحمد الجابر الصباح ...

تراك تبدأ مع من بدأ مستلهماً الايمان ، والقيم ، والمبادىء القومية ، فتشارك في عودة الانسان العربي الى إحساسه بعروبته ، أم سوف يستمر الانسان العربي في الكويت غريبا فوق ارضه ؟..

ما أقسى السؤال ؟

وما أشجع القادر على محوه من الاذهان ، شيخاً ... حاكماً .. أميراً ، رئيساً ...
أو كان ملكاً .

المراجع العربيّة

المؤلفات

دول الخليج العربي الحديثة .... د. حسين محمد البحارنة

صراع الواحات والنفط .... رياض نجيب الريس

التطور الاقتصادي لدولة الكويت ...... قدري قلعجي

الكويت .. الرأي الآخر .... د. عبد الله فهد النفيسي

الجذور الاجتماعية للديموقراطية في مجتمعات الخليج المعاصرة .... د. محمد الرميحي
ـ دراسة ـ

نظرات على أمراض المجتمع ـ دراسة د. فاروق العمر

الصحف والمجلات

دوريات كويتية

القبس ■ الوطن ■ الرأي العام ■ السياسة ■ النهضة
وزارة الاعلام الكويتية ـ الكتاب السنوي ١٩٧٧

دوريات لبنانية

الحوادث ■ الديار ■ النهار .... لبنانية

المنار .... لندن

العرب .... لندن

المستقبل .... باريس

المراجع الانكليزيّة

Abu Hakima, A., **History of Eastern Arabia**, Beirut, 1965.

Adamiyat, F., **Bahrein Islands, N.Y.**, 1955.

Aitchison C.U., **A Collection of Treaties, Engagements, and Sanads Relating to India and Neighbouring Countries**, Vol. XI, Calcutta, 1933.

تحت الطبع
الكتاب الثاني من

تأشيرة إنسحاب من صحراء الخليج العربي

Printed by Gadsby & Mustoe Ltd,
59 South Street,
Epsom, Surrey,
ENGLAND



Dar Albardy Publishing
35 , Gold Hawk Road ,
London , W .12 ,
ENGLAND

Regn . No. : 2417641 .

■ على مدى ست سنوات من عام ١٩٥٥ إلى عام ١٩٦٠ درس الصحافة أكاديمياً ، وعمل في عدد من الصحف السورية واللبنانية ، « الحوادث ، الميزان ، الجهاد ، والوطن » اليوميات في حلب .

وإنتقل إلى دمشق ليعمل في صحيفة « النضال » ويراسل مجلة « السنابل » الحلبية .

■ تسلم عمله في تلفزيون دمشق ، كاتباً ومعداً للبرامج ، ومخرجاً مساعداً ثم مخرجاً من عام ١٩٦١ إلى ١٩٦٣ .

■ غادر سورية إلى بيروت وعمل محرراً ثقافياً ، وناقداً فنياً في صحيفتي « الكفاح والجمهورية » اليوميتين ، وفي الأسبوعيات « الحسناء ، الاحد ، تي.في ، الشبكة ، والليالي » وتولى في الأخيرة منصب المدير العام للتحرير .

■ كتب ونشر عشرات القصص القصيرة . صدرت له قصة طويلة بعنوان « إلى حيث لا يدري » ومجموعة قصص قصيرة بعنوان « صدى أغنيات »

■ في صحافة الكويت ، عمل من عام ١٩٦٩ محرراً في صحف « دار الراي العام » وسكرتيراً لتحرير مجلة « النهضة »

كما عمل رئيساً لقسم السياسة المحلية في مجّلة « اليقظة » ومديراً لتحرير مجلة « صوت الخليج » حتى أواخر ١٩٧٤ .

■ غادر الكويت عام ١٩٧٥ إلى قطر ليتولى مجلة « العهد » الأسبوعية ، ثم كلفته وزارة المالية والبترول القطرية ، بتأسيس مجلة « ديارنا والعالم » الشهرية ، وتولى رئاسة تحريرها .

■ هاجر الى بريطانيا ، وعمل في القسم العربي بهيئة الاذاعة البريطانية « B.B.C » مذيعاً وكاتباً - غير متفرغ - وإنصرف إلى الدراسة والتأليف .

وفي عام ١٩٧٨ دعي الى البرازيل ليتولى إدارة تحرير مجلة « العربي - البرازيلي » الاقتصادية الصادرة شهرياً في ولاية ساوباولو .

وعاد إلى بريطانيا بعد فترة غير طويلة .

■ قام برحلات صحفية إلى عدد من الدول الاوروبية والآسيوية ، والافريقية فصور وكتب تحقيقات عديدة عن هذه الرحلات ، نشرت في صحف ومجلات عربية .

فاروق منجونه

■ بعد صدور كتابه « أنا كويتي » ينصرف إلى تاليف كتب أخرى عن دول وامارات الخليج العربي ، في سلسلة « تاشيرة انسحاب من صحراء الخليج العربي » عن دار « البردي » للنشر في لندن .

Farouk Manjouneh

A visa of quitting the Arabian Gulf Desert

I AM A KUWAITI

IN SEARCH OF AN IDENTITY OF BELONGING TO A HOMELAND.

Bibliotheca Alexandrina
03345200

(Price £6.00 U.K.).